سنتيمترات إضافية

(تامرعطية)

رواية: سنتيمترات إضافية
المؤلف: تامر عطية

تدقيق لغوي: لخضر بن الزهرة
تنسيق وإخراج داخلي: لخضر بن الزهرة
تصميم الغلاف: عبد الرحمن الصواف
رقم الإيداع: 25717 / 2019
الترقيم الدولي: 978/977-85607-3-2
الطبعة الأولى: 2019
رئيس مجلس الإدارة: أ. د. محمود محمد السعيد
المدير العام: هالة البشبيشي

بريد إلكتروني: info@alhalapublishing.com
تليفون : 01110161117
العنوان: 26 ش 261 المعادي الجديدة
صفحة الفيسبوك: مركز الهالة الثقافي
https://www.facebook.com/alhalapublishing

جميع حقوق الطبع والنشر محفوظة للدار، ولا يحق لأي شخص أو مؤسسة أو جهة إعادة إصدار هذا الكتاب، أو جزء منه، أو نقله بأي شكل من الأشكال، أو وسيلة من وسائل نقل المعلومات، ولا يجوز تداوله إلكترونيًّا نسخًا أو تسجيلًا أو تخزينًا، دون إذنٍ خطيٍّ من الدار.

جميع الآراء الواردة في هذا الكتاب تعبّر عن رأي كاتبها، و لا تعبّر بالضرورة عن رأي دار النشر.

سنتيمترات إضافية

(رواية)

تامر عطية

إهداء

إليها، وإليهِما.

-1-

البدايةُ هناك... عند أحد النجوع المنسية، حيثُ العالم لا يهتم، ولا النجع أيضًا.

الحياة رتيبةٌ جدًّا، منعزلةٌ عن الأحداث الكبرى، لا يعنيها ما هو أبعدُ من الحد القصي للزراعة، منغلقةٌ على نفسها لولا (عبده الرحال)، بالأحرى عائلة الرحالين التي تقضي احتياجاتهم الخارجية المحدودة، دون انغماسٍ منهم في صخب الحياة، هو ليس في أهميةِ الباقين لقصتي، لكنه الأهمُّ بالنسبة لأهل النجع حتى رحيله المطلق.

تعرفون الظُّفرَ الذي يقضمه أحد المتوترين؟ عادةً لا يعرف أين تفلَه، ولماذا قد يريد المعرفة بالأساس؟ المعرفة مرهونةٌ بقيمةٍ ما، والظفر يغدو بلا قيمةٍ بعد انفصاله.

إنه النجع الذي قضمه العالم من خريطته، وتفله دونما اهتمامٍ، ساعدت طبيعةُ أهل النجع في الاحتجاب، قد تكون المسافةَ بينها وأقرب قريةٍ مجاورة، أو لأنهم لا يمتلكون ما قد يغري الآخرين بالقدوم إليها – هذا مع احتفاظهم التام بسر (ليلى) الصغيرة دائمًا– لذا بقيَ النجع ربما لأبعد من زمن حكايتي مزويًّا، ومحاطًا بالمسافات.

طبيعيٌّ أن يكون مكتشفُ الحدث الخارق طفلٌ صغير، هذا يضمن جعله خارقًا للعادة، يكفي فقط أن يبدأ الطفلُ حكايته.

ذلك ما حدث بالضبط حين طاوع (محمد القالع) الابن قدميه، وجاوز مجالَه المعتاد إلى تلك البقعة القصية، والتي تقع في الطرف

الآخرِ من مقابرهم، ومنطقةِ الأرض الجدباء أو المحرَّمة كما يستقر في ضميرهم الجمعي، وسنتحدث في هذا لاحقًا لنعرف كيف صارت محرمةً.

«لا تقربوا الحافة»... كانت ثمةَ تحذيراتٌ دائمة للأطفال حتى لا يسقطوا من فوقِ الجرف العميق الذي يحدُّ غيطانَهم، ويفرض عليهم سياجَ عزلةٍ جبريًّا، لم يعترضْ الصغار، آمنوا أن كل ما يأتي من الخارج مخيف.

(محمد محمد محمد محمد القالع) والذي يبدو من اسمه تقديرُ قيمة الأب الأكبر، والحرص على تخليدِ ذكراه على مدى طويل جدًّا، فلا أحد يعلم كم (محمدًا) في السلسلة، ولا إلى أي جيلٍ ينتمي (القالع)، وحتى (القالع) اسمه (محمد) بالأساس، اكتسب لقبه بحادثةٍ شهيرة عندهم، لكنه موجودٌ منذ البدء تقريبًا، وحكاياته لم تزلْ حيةً وثرية، كان هذا نمطَ التفكير عند هذه العائلة بالذات... عمومًا؛ يمكننا رسم الاسم، بل واختزال العائلة كلها صوتيًّا هكذا (محمد القالع).

برغم حداثةِ سن الابن أعلنها لأمه، والأم تكفي: «**حين أنجب سأكسر السلسلة باسم آخر، ولو لم أحصل مثلهم إلا على ذكرٍ وحيد**»...

(إنها طبيعة السلسلة، تتشابه الحلقات بدرجةٍ تجعل التدقيقَ في إحداها أمرًا مرهقًا للعين، ومحاولةَ تمييزها أكثر إرهاقًا، فقط الدلاية تسحب العين إليها فتختفي الحلقات: كل الحلقات).

كم من (محمد) ضاع وانمحى، آخر الـ(محمدين) يبقى إلى أن يضيِّعه جديد، أو يختزله ضمن العددِ الهائل من غير المدرَكين، وبرغم عدم إضافةِ الاسم لهم كثيرًا، ظلَّ حرصهم بالغًا على تخليده، أراد الابن

لوريثه البقاء كما أراده لنفسه، ربما كان أكثرَ حصافة من سابقيه، اسم جديد ثم (محمد القالع) سيبقيه أمدًا أطول.

سارتِ الأرض من تحته... (هي حالةُ الانفلات من الحد المعلوم، أو الانشغالُ بشيءٍ غير السير ذاته –قد تكون شمسُ العصاري غيمةً على شكل طفلة سماوية، أو الممرَّ الشرفي الذي تصنعه أعواد الذرة الكاسية– وربما كل ذلك كان سببًا في مطاوعته لقدميه، وهروب الزمن منه).

عندما وصل إلى تلك البقعةِ القصية من الأرض المنزرعة، عند مكان القضم تمامًا، هاجت رغبتُه في رؤيةِ جديد، أو اكتشاف نهايةٍ للمسافة، وبعد نفاد الحقل عرفَ أنه لا شيء ينتهي فوق الأرض، بالتأكيد لم يدركْ كرويتها، لكن سريان الدم في قدميه أخبره أنهما أقصر من المسافات، والعيون.

نصف ساعةٍ تقريبًا من السير المنتظِم مجهدةٌ لطفل، رغم أنه يمكنه اللعب أضعافها دون أدنى جهدٍ يُذكَر، قد تكون هي المسافة بين السير واللعب.

(الوقوف عند الحافة يمنح الواقف مشاعرَ متناقضةً: انعدامُ الخطوات مع اتساع الرؤية، الرغبةُ في السقوط والخوف منه، الشعورُ بالعظمة والضآلة في الوقت ذاته، مجموعةٌ من المشاعر لم يتمكنْ رأس الولد الصغير من تفسيرها، ذلك الاضطراب أنفقَ بعض الوقت القليل مضافًا إلى زمن المغامرة).

لم يتخيلْ لحظةً أنه سيبدأ من هناك حكايةً سوف تغير مصير

النجع بحاله، هو لم يُرتِّب لحكايةٍ ما، وما لا نرتب له عادةً يغدو أعظمَ الأحداث أثرًا، هذا فيما يتعلق بالأشخاص العاديين، الذين لا يمتلكون من ميراث البطولة سوى الصدفة المحضة.

العبثُ أقوى من النظام، فهو يحملُ متعةَ الصدمة، والصدمة تتضاعف في عين طفلٍ أخضرَ لم يجاوزِ العاشرة من عمره... آخرُ الحقل آخر الدنيا، وما بعد الدنيا زائدةٌ بصرية عديمة الفائدة، تكفي للحلم وليس للوصول.

«لو أن هناك أرضًا، سأستمر إلى ما لا نهاية بدون جديد»... هذا ما أسرَّه في نفسه عند الحافة الفاصلة بين دنياه وبصره، كان البراحُ أوسعَ من إدراكه، وكان الجرف من تحت قدميه مخيفًا حد الفزع، لذا لم يتأخر كثيرًا في اتخاذ قرار العودة إلى النقطة الأولى: أمه التي يفضلها على التيه في البراح.

كعادة من يتعلقُ في ذيل فضولِه رغم اليأس، قرر العودةَ دون التزامٍ بخط سيره الأول، وحين تضيقُ المسافات تنحسر رهبة التجريب، وتصير كل القرارات متشابهةً، لذا لم يكنْ هناك أي نوعٍ من المغامرة في تغيير المسار، عساه يرجع بشيءٍ غير الخيبة، عندها رأى أسوأَ ما قد يراه طفلٌ في مثل عمره، وبدأ كلُّ شيء.

***

-2-

يمكن ببساطةٍ شديدة تخيل ملامح طفلٍ أقل من العاشرة، التقى أمه بعد مسافةٍ -تقارب العدو لعشرِ دقائق- من الفزع الهائل، حجبت الأنفاس المتدافعة كلماتِه، ولم يحتملِ الأمر دقائق الخفوت.

«أمي، أمي، رأيت، نصف، رأيت نصف، نصف إنسان، رأيت نصف إنسان»... كانت جملتُهُ المهترئة التي نطقها كافيةً لبث فزعه في حضن أمه، لكنها أمُّه في المقام الأول، تعلم تمامًا ما يتوجب فعله وقتَ الفزعِ، لا شيء أهمُّ من استعادة ولدها المرتعب لانتظام أنفاسه، كتمت خوفَها، وكلَّ أسئلتها إلى أن خفتت ارتعادات الصغير في صدرها.

(كاذبةٌ هي عيون الأطفال، دائمًا ما ترى الأشياء أكبرَ من حجمها، وبغير طبيعتها، تضيف عليها ما ليس فيها، وتخلق خوفها... لا بد أن ما رآه أصغرُ بكثيرٍ من نصف إنسان، عيناه الواسعتان أضافتا وضخمتا الصورة).

سألته محاولةً اصطناع هدوء كاذبٍ، بعد فترة من امتصاص الخوف:

- نصف إنسان؟!

كرر جملته متحديًّا نبرة الشك لديها:

- نعم، نصف، نصف إنسان يا أمي.

تبعها بإشارةٍ تحدق في البقعة القصية، والممنوعة على مثله من

الصغار.

كانت (أمينة) تعرف ولدَها الوحيد -كعادة أغلب ذكور عائلة زوجها، أو كلهم تقريبًا- كما لم تعرف واحدةٌ من أقرانها ولدَها، كانت أقربَ إليه من ملكي السِّجل، تعرفُ أمانيه، تحفظُ أحلامَه، تعابيرَ وجهه، بل وتعرف كيفيةَ عمل عينيه الواسعتين، خاصةً حين يمتزج الواقع فيهما بالخيال، كانت مهتمةً بشكلٍ واضح.

شيء في نبرته أنبأها بأن الأمر يستحق الفزع لا السخرية، ولو لم يكن نصف إنسان، فهو بالتأكيد شيءٌ مفزع... خوف الصغار يبعث على الخوف وإن غاب ما يخيف بالفعل، ربتت على ظهره إلى أن حلَّ الهدوء، ووقت الهدوء تفور الأسئلة: «**ماذا لو كان نصفَ إنسانٍ بالفعل؟ يا إلهي هل يكون قتيلًا وسط الزرع؟**»

لم تشأ أن تقلق سكونه، فأمسكت عن الكلام حتى تدخَّل الأب (محمد القالع) -أحد الذين مسيرهم للنسيان- في المشهد سريعًا، دخل إلى البيت ليحتل مكانته وأولويته في معرفة ما يجري؛ بين الأم وولدها:

- ابنك (محمد) يقول إنه رأى نصفَ إنسانٍ هناك، عند حدود الأرض المنزرعة.

قالتها مستعيرةً نفس اتجاه إشارة ولدها، كانت نبرتُها مستسلمةً، ومتشككة مثل أي إنسان لا يريد تصديق حكايةٍ يثق في راويها.

كعادة الذكور العقلانيةُ المتكاسلة، لم تلقَ كلمات الأم صدى عنده من المرة الأولى، وكعادة الأطفال؛ استبدلَ الابن صوته بكلمات

أمه، فلم ينبسْ حتى بعد أن استقبل والدُه الكلمات بابتسامةٍ مملوءة بالهدوء، وغير مناسبةٍ لطبيعة الموقف، توجبَ على الأب الحديث مع ولدِه أكثر من مرة وبأكثرَ من طريقةٍ، كرر ما قاله مرات، كان لا بد من بعض الجدال مع (أمينة) أيضًا، عاد لتوه من العمل في الأرض التي يكرهُها، ربما كان يكره العملَ أساسًا، كما يكره بهائمَه أيضًا، التضحيةُ بوقت الراحة أمرٌ ثقيل على نفوس الرجال، وأثقل من الجهد نفسه.

يمكن القول إنهم استهلكوا ما يقاربُ الساعة من عمر شمسهم، مكثوا في شدٍّ وجذب لم يغيرا شيئًا من أصل الحكاية العالقة برأس الابن، بعدها قرر الأب متأففًا اصطحاب ولده إلى حيث يرقد النصف المزعوم، رغم اعتقاده التام في ضلال العيون الصغيرة.

حفظت الخطواتُ الضيقة طريقَها الأول: طريقَ البحث عن الحافةِ، وبدايةِ الخوف القادم.

(كمعلومةٍ جانبية، لا بد من توضيح مساحة الأرض وموقعها الطبوغرافي، إنها طويلةٌ بالفعل لكن عرضها محدود، لا تتجاوز الثلاثة أفدنة عرضًا، قطعوا بين نصفيها طريقًا رفيعًا جدًّا يكفي لرجلٍ وحمارته، يمكن قطعها طولًا في نصف ساعة من السير المنتظم، ودقيقتين إضافيتين لتبلغ الحافة التي لا يهتمون غالبًا بالوصول إليها، ويمكن أيضًا اختزالها في عشرة دقائق جريًا، كانت أشجارٌ ضخمة تحدها من الجانبين وليس من الأمام، أنبوب طويل، ربما زرعها أجدادهم أو فعلتها الطبيعة ببراءة، يمكننا تخيل الصورة من السماء، ستشبه تشريحيًّا العضو الذكري، أما بالنسبة للموقع، فبالتأكيد هي في منطقةٍ مرتفعة، ربما هي هضبة، الارتفاع عمومًا يحد المساحات خصوصًا إذا ما كانت

الهوة المحيطة سحيقة).

كان وجودُ الأب إلى جوار ابنه هو نصف علاج خوفه، ليس أكثرَ من النصف بأي حال، فالصورة المفزعةُ عالقة بوعيه تمامًا، ولأن انفراجة قدمي الأب أوسع بدا الطريق أقصرَ، كان لا بد وأن يقصرَ، فالشمس لن تصمد طويلًا، ذلك كلف الابن سرعةً إضافية لم يشعر معها بالوجع.

حاول (محمد) الأب اختزال المسافة بحكايةٍ قد تشغلهما عن انكسار الضوء في السماء:

- تزوجَ جدُّك (القالع) عشرَ مرات بالعدد، هذا يعني أنه تقريبًا أخذ من كل بيتٍ امرأة، كان عدد البيوت محدودًا، تسعٌ منهن فشلن في منحه ابنًا، ولم يكنْ عدم الإنجاب سببَ التعدد، إنه الموت يا ولدي، فكلما حملتْ إحداهن له ولدًا تموت قبل أن تمرَّ شهوره الأولى، لذا يقولون أنه قتل امرأةً من كل بيتٍ، العجيب أنهن لم يتوقفنَ عن الزواج منه، تعرف لماذا؟

كان جميلًا يا ولدي، تلمس قدماهُ الأرض وهو راكب حمارته، بعد الزيجة الثالثة تقريبًا، خلع كلَّ ملابسِه وسار ليلًا يجوب طرقات النجع؛ ذلك ما أمرته به العرافة كي ينجب، العرافة التي أحرقوها أمامَ دارها، لها قصةٌ محورية ستأتي قرب النهاية.

أعلن للجميع موعدَ سيره العاري، وتعاطف معه كلُّ أهل النجع، حتى أنهم أغلقوا على أنفسهم الأبواب والنوافذ ليفعلها مستورًا، يبدو أن إحداهن رأت شيئًا منه خلسةً، حكت لواحدة فقط، وتمنت بعدها كلُّ واحدة لو تزوجته ثم تموت.

تعجب الابن، وتساءل في داخله عن الشيء الذي قد يجعل امرأةً تقبل الموت لمجرد الزواجِ منه، هذا يشبهُ الأحجية، أراد سؤالَ والده لماذا؟ لكن رأسه ازدحم بصورة ما رآه، امتلكَ ما يفوق الفضولَ الطفولي فصمَت.

تابع الأب مستغربًا عدمَ تفاعلِ ولده على غير العادة مع حكايته:

– الأخيرة فقط هي التي صمدت إلى أن وضعت له ذكرًا، ماتت بعدها مباشرةً، استمرَّ النسل ووصلنا إليك، ورغم أنها كانت العاشرة، لم ينسَ تقديم شكره للعرافة التي ألهمته طريق الخلود، الطريق الذي جعل منه (القالع)، لذلك يموت الجميع ويحيا (القالع).

أخبرته وقت الشكر والعرفان بعهد الذكر الوحيد، لا أعرف إن كان عهدًا أم لعنة من تدبيرها، صار كل نسله ينجبون ذكرًا وحيدًا –ضاع منه الكلام للحظة حين تذكر أخاه الاستثنائي، ثم تابع– **في الغالب، وما تيسر من الإناث، مثلك أنت وأختك (سوسن)، مثلي أنا وأختي (نجية)، عمومًا كان هناك دائمًا ما يكفي لبدايةٍ جديدة.**

حاول جعل الأمر مجرد نزهةٍ متأخرة قليلًا إلى حيث أشارَ ولده، أضاف قيمةً لسيرهما قدر المستطاع، وحين ينقشع الضباب عن خيالات المغفَّلِ الصغير سيربت على كتفه قائلًا: **«لا تبتعد عن الدار كثيرًا مرة أخرى!»**

عند الحافة التي يعرفُها الكبار وحدَهم توقف الأب، لم يجربْ نظرة

المغارب من قبل، حيث الصورةُ الباهتة الظلامُ أعمق من النور، شعرَ بذلك، قال:

– محمد، الأرض واسعة جدًّا!

قالها وهو يسبح شاردًا في الفراغ المتناثر، كأنه نسيَ الغرض من الرحلة، ابتلعه البراح وانهمكَ فيه، رآها مراتٍ ومرات ورآها لحظتَها بعينٍ أخرى، عين صغيره الذي ساقهُ إليها... لم تغير كلماتُه شيئًا من وجوم ولده، لقد جربَ الرؤية بنفسِه قبلَها بقليل، ويعلم تمامًا أن القادم لا يشبه في أثره شيئًا.

خفَّف انحسارُ الضوء من رغبةِ الأب في التأمل، استرجع غايتَه الحقيقة من سيره، نهايةُ الأرض بدايةُ المشوار باتجاه النصف، والذي يصرُّ الابن على وجوده بشكلٍ عجيب.

– الطريق من هنا.

ابتسم الأب لجديةِ ولده، فقد وجدَ أن الأمر يستحقُّ العناء بعد النظرة الأخيرة، تحركَ الولد متجاهلًا وقوع والده في أسر البراح، تبعهُ وكأنما استبدلا الأدوار، من يملك الحقيقة أجدرُ بالاتباع.

(الأرض لا تنبتُ أنصاف بشرٍ، والسماء لا تمطر أنصاف ملائكة أبدًا)... كان هذا ظنَّ الأب، ويقينَه المتماهي مع الطبيعة المُعاشة.

بدأ الطريق يتعقَّد شيئًا فشيئًا، هذا يحدث دائمًا عندما نقترب من النهاية، دائمًا ما يمنحنا المكانُ بعضًا من خباياه ليضاعفَ أثر الاكتشاف، وصدمته.

قبل أن ينفد الصبر، توقف (محمد) الابن وأشار إلى بقعةٍ قريبة من العين، وليس النظر.

– النصف هناك يا أبي.

تابع الأب سيره مدققًا النظر في نقطة التقاء إصبع ولده والمجهول... بالفعل كان هناك شيءٌ، لكنه على مسافةٍ غير كافية للتمييز، هناك شيءٌ قد يغفر للصغير خياله المُلِح.

– أبي، نصف الإنسان.

الفكرة في حد ذاتها غير مقبولة تمامًا، لم يخلق الله أنصافًا، وإن خلقها، فلماذا يزرعُها بين مكتملين؟ إنهم مبتورون من جسدِ الدنيا، ووجودُ نصفٍ يعني أن أحدهم مفقود.

أصرَّ الابن، والإصرار مثير للحفيظة دائمًا، كان من الأفضل للأب أن يحتفظ بأكبر قدرٍ من عدم اليقين، وقد حافظ أيضًا على سماحة مشاعره تجاه ولدِه منفلت الخيال.

هناك شيءٌ، قد يكون كلبًا ميتًا أو بهيمة نافقة، قد يكون أي شيءٍ إلا نصف إنسان، الله لم يخلقه.

حاول الابن الاقترابَ أكثر، أشار إليه والدُه بالثبات حيث هو، الحياة لا تخلو من الجنون، ومن الجيد أن يبقى الصغار بعيدين عن جنونها، إلى أن يعودوا قادرين على تحملِه.

اختزال المسافات يزيد العين اتساعًا، وعينا الأب كانتا واسعتين حدَّ الرؤية، عندما تحققَ من وجود قدمين عاريتين التفت إلى ولده

مشدوهًا، ما اختزل خوفَ الابن كلَّه في انتظار القادم... هناك شيء، هذا يعني أن السير كان مستحقًّا، وأن عقل ولده لم يزل بخير.

اقترب (محمد) الأب بخطواتٍ مترددة، مع كل خطوةٍ جديدة تتكشَّف الصورة ويسقط عنها بعض الظلِّ، إنهما قدما إنسان مكتملتان، لا بد وأنه كامل، قسمه الخوف إلى النصف في عين الصغير.

الجزء المرئي حقيقي، وليس هناك أدنى شكٍّ في أن النصف الآخر محتجبٌ فقط بين الظلال، عدم رؤية الشيء لا تعني أبدًا أنه غير موجودٍ، وقد يكون الاقتراب وحده كافيًا لاكتمال الصورة.

خطوات إضافية منحت الأب بعض القدرة على وصف ما يراه، إنهما قدما إنسانٍ، قدمان غير مهانتين، أقرب إلى البياض، عكس ما يتصف به أهل النجع من سمارِ لون البشرة، الجلد مشدودٌ ذو لمعة ظاهرة، كما لو كان مطليًّا بالشمع، أرجعَ الأب تلك اللمعة لانعكاس الرمق الأخير من الضوء على اللحم، السكون التام ينفي وجودَ أي أثرٍ للحياة، الشعرات الناعمة عند المنطقة السفلى من الرِجل، والذي يشبه زغب فراخ الطيور، ينبئ أنهما لرجل مكتمل النمو، رجل بالغ، يرقد على بطنه، حيث بدت مؤخرته مثل بطن حاملٍ شُقَّت إلى نصفين، إنه رجلٌ فمؤخرة المرأة أكثر استدارةً، وإثارة.

كل شيء بدا حقيقيًّا، لولا أن (محمد) الأب كان يشم رائحةً لا تشبه الموت، ولا تشبه الحياة أيضًا، رائحةً تشبه اللعنة القريبة.

تلاشت المسافة نهائيًّا، وتأكد الأب من افتقاد النصف المرئيِّ لنصفه الآخر. (أول ما يمكن أن يدور برأس عاقلٍ في مثل هذا الموقف

هو البحث عن النصف المفقود، ملامح التعريف، إنها أزمةُ الرغبة المعرفية، لا بد وأنه في مكانٍ قريب، ليست هناك مبرراتٌ لاختفائه فلا أحد يُفضِّل النصف العلوي من إنسان).

رغم الصدمة المتعلقة بالصورة بدأ بحثُه، وإشارتُه الجادة بالثبات الكامل لم تزلْ مُصوبَةً نحو ولده.

دار في المكان حذرًا، الخوف يشوش الرؤية، أما هو فقد أصرَّ على التدقيق في كل الزوايا المحيطةِ والخبايا.

(في الحقيقة رؤية قتيلٍ مكتمل أخف وطأةً من نصفه، سواء كان علويًّا أو سفليًّا، ورؤية النصف العلوي أخف وطأةً من السفلي، هذا ليس له علاقةٌ بالموت فحسب، فالموت هو الموت في أية حالٍ، إنه الفضول القاتل لمعرفة الميت، أو لنكن أكثرَ وضوحًا: إنها أزمة المعرفة).

بعد أن فرغَ منه الفضولُ عاد إلى مكان النصفِ، كان الابن قد خالفَ أمر أبيه بالطبع، واقترب إلى النقطة التي بدأت من عندها كلُّ الحكاية، عيناه ثُبِّتَتا عند موقع الفصل تمامًا، حملتا سؤالًا وحيدًا غير منطوق.

– هل هذا طبيعي؟

مع كل علامات التعجب على وجهه دار الأبُ حول النصف، بدأ ينتبه للصورة الكاملة، لا أثر لدماء مطلقًا، القطع حاد جدًّا، ونظيف بدرجةٍ جعلت النصفَ أشبه بدمية صناعية، لا أحد يقتل بكل هذا القدر من العناية بعدها، الجلد نظيفٌ ولامع، هذا لا يتناسب ووحشية

الفعل، ولا المكان الطيني الذي يستقر فيه ما تبقى من الجسد.

ليست هناك سكينٌ بهذه القدرة، إنها أحدٌ من أن تعترضَ العظام طريقها، لماذا أنفق القاتل وقتَه في جعل القطع مثاليًّا؟ بالتأكيد لم ينفقِ القليل، ويبدو أن هذا ما دعا الأب للركوع إلى جواره، تردد كثيرًا قبل لمسه، بقدر ما احتمل جسدُه من خوفٍ فعلَها، كان اللحم لم يزلْ دافئا، الورك بضٌّ طري، لم يصبه التخشب بعد ما يعني أن الزمن بين القتل واكتشافه بسيطٌ جدًّا إلا إذا كان قد خُلِق هكذا، الجلد ناعمٌ مشدود إلى عمر الشباب المتقدم، اللحم بشري وحقيقي، بالأحرى كما يجب أن تكون حقيقة البشري.

(عندما نصل إلى حدود اللمس تبدو الصورة أكبرَ من حقيقتها، كأنك تنظر مباشرةً إلى داخل ما تلمسه، إلى عمق روحه، حتى وإن كانت قد غادرته، لكل شيءٍ أثره، وللروح أثرها حتى بعد الرحيل، لذا يكون اللمس وحده بديلًا للرؤية عند الأكفاء، ويبدو أن رقود الميت على بطنه دائمًا غير مريح، أعتقد أن أغلب البسطاء يعتقدون في أنها رقدةُ أهل النار، لذا قام (محمد) الأب بتغيير وضعه حتى وإن لم يكنْ له وجه يخشى عليه الطين، قلَبَه وهو لا يعلم ماذا سوف تعني هذه الفعلة؟ في المعتاد يحتل جزء واحدٌ كامل الصورة، جزء يتناسب مع شخصية الرائي، بمعنى آخر يفرض وجوده الطاغي، تنمحي إلى جواره كلُّ الملامح، كالدلاية في سلسلةٍ متشابهة الحلقات كعيني (الموناليزا) بالنسبة إلى كامل اللوحة، وكالعضو الذكري بالغ الطول لنصف رجلٍ مجهول الهوية، يجاوز الفخذ تقريبًا رغم ارتخائه الواضح، عضو بمثل ذلك الحجم كفيلٌ أن يحجب الرؤية عما سواه ما منح الأب عددًا هائلًا من الأسئلة المُلحة).

- هل هذا طبيعيٌّ يا أبي؟

خرج السؤال بريئًا جدًّا من فمه الصغير، يقصد طريقةَ الفصل النظيفة، لكل قطعٍ دماء واهتراء، وليس للنصف أية زائدة، إنه قطعٌ نظيف مثالي ومستوٍ دون دماء، لا يشبه الذبائح التي رآها من قبل، في عيد الأضحى يُبقون جزءًا من الذبيحة أكبرَ بكثير من النصف، فصوَّر له عقله الضئيل أن ذلك النصفَ غير منقوص، وأنه خُلق هكذا، أسرَّ إلى بعض الصغار فيما بعد: «**تعلمون؟ انتظرت منه أن يتحرك، ولم يفعل، كان حيًّا رغم أنه نصف**».

تلقف الأب سؤاله بطريقة أخرى، ارتبطت بحجم العضو، هذا مشين في عرف العلاقة بين الأب وولده، خاصةً في السن الصغيرة، أفقدَته الصدمة جزءًا كبيرًا من قدرته العقلية على تفسير الكلمات، فحدثه بحدةٍ بالغة رغم براءة السؤال:

- انسَ ما رأيت، سنعود الآن إلى المنزل، وفمك هذا لن ينطق بكلمةٍ واحدة ولو لأمك، هناك أمورٌ لا تعرفها لا بد من تدبيرها قبل أيِّ شيء، هل فهمت؟

لم يفهم الابن شيئًا بالطبع، لذا بدت أمارات البلَه على ملامحه، وهو يهز رأسه مطيعًا، متجنبًا نبرة والده الجديدة.

مطَّ التفكير الأرض من تحت قدميهما، صارت مسافة العودة أطولَ بكثير، سير الشاردين يجعل الأقدام أقصر، وكانا شاردين.

تساءل (محمد) الابن طول الطريق عن معنى كلمات أبيه الأخيرة، أي أمور سيدبرها والده؟ هل يعني هذا أن الأمر سيظل سرًّا إلى ما لا

نهاية؟ أم أن الحظر سيرفع بعد التدابير التي لا يعلمها؟

تخيَّل منذ لحظةٍ واحدة أن والده سيقبض على كفه ليطيرا عبر حقل الذرة صارخين، كان على أهبة الاستعداد لمشاركته الصراخ، نصف إنسانٍ ليس بالأمر الذي يمكن مواراته وتجاهل وجوده، فلماذا اكتست لهجته بالصرامة؟ «**انسَ ما رأيت**».

ولماذا سيدبر أمورًا إن كانت الحكاية قابلةً للنسيان؟ إن كانت لا تستحق؟

هذا أكبر من أسرار طفلٍ قبل العاشرة كي ينساه ببساطة، الصغار كثيرون، وأوقاتهم أوسع من الحكايات، (أعتقد أن (محمد) الابن حاول مقاومة تصديق الخسارة، خسارة قصة هو بطلها، وقد تجعله محطَّ أنظار وأسماع أقرانه، ولربما تكون قصته أمام من يكبرونه).

نصف إنسان حدثٌ لا يتكرر، إنه حدثٌ يستحق الخيال، ولهجة أخرى غير تلك التي نطقَ بها والده، يريد إجباره على التنازل، هذا مؤلمٌ لأي طفلٍ، ولا يمكن احتمالُه أو ضمانه بأية حال.

في الحقيقة لم يقصدِ الأب نسيانَ الأمر برمته بل نسيانَ العضو وحده، فالحادث لا يمكن تجاهلُه أبدًا، لكنه لم يمتلك نفَسًا للتوضيح.

في اللحظة الأولى التي رآه (محمد) الأب شعر بإحساسٍ عجيب أن ذلك النصف منه، لكن ليس هناك عضوٌ بمثل ذلك الحجم، على الأقل في محيطه، لقد أغلق عينيه وفتحهما ألفَ مرةٍ في حضرته، كان حقيقيًّا، لا بد وأن العيب بالنصف، فليس بين كل من رأى عضوهُم حتى حدود المراهقة؛ ولو سهوًا، من يمتلك نصف حجمه.

صحيحٌ أنه لم يهتمّ أبدًا بمعرفة ما يمتلكه الآخرون، ربما هي طبيعتُه المجبول عليها بدرجةٍ جعلته مغايرًا لأقرانه، ومستبعَدًا من لهوهم الآثم -عدا مرةٍ وحيدة ستعرفونها تفصيليًّا حين يأتي وقتها- لكنه رأى حتى ولو لم يروه.

هل تنمو الأعضاء بعد البلوغ مثلًا؟ بعد الزواج؟ ألا يتوقف عند حدٍّ معين؟ العيب في عضوِه؟ أم أن عضوَ النصف هو الممطوط حدَّ التشوه؟

الصورة حقيقية تمامًا، لقد تأكد بنفسه، هل تنتخب الطبيعة بعض الأفراد، لتمنحهم شيئًا إضافيًّا من الذكورة؟

لو أن هذا ما يحدث فهو غير مميزٍ، ولا بد أن هناك من بين الجموع من تم اختياره.

استرجع آهاتِ زوجته في لحظات الحب، هل ما يملكه كافٍ؟ وإلا فمن أين أتته بالآهات؟ «**لا، لا يمكن أنها جربت غيري، لقد سمعت تلك الآهة الأخرى مرتين، لا تشبهها مطلقًا**»، حدَّث نفسه بصوت خفيض، ثم دقق في ملامح ولده بطرف عينه، كان يشبهه تمامًا: «**لا، لا يمكن هذا**».

أسئلةٌ متراكبة ككومة نحل، في وجود نصفٍ يرقد بين فخذيه نصفُ ثعبان مكتملُ النمو.

تخيَّلَ الحال حين يقف وسط الساحة هاتفًا في أهل النجع: «**هناك عند أقصى الأرض المنزرعة يرقد نصف إنسان بعضو؛ لم تروا مثله من قبل**».

ستراه النساء، وستحكي التافهات لمن فاتها المشهد، ستشيع فتنةٌ كبرى، فتنة إعادة تقييم الذكور في النجع كله.

توقف مكانه للحظة مذهولًا: «**يا إلهي، إنه شيطان، نحن في مصيبة كبرى، كيف فقدت عقلي؟ سيسلبهم العضو عقولَهم كما فعل معي**».

بالفعل كان تجاهلُه للمصيبة الكبرى التي حلَّت على النجع دليلًا على غياب وعيه، كيف يمكن التخلص من ذلك النصف؟ كيف سيمكنهم؟ النصف لعنةٌ لا تحتمل إضافة لعناتٍ أخرى لها، «**إنه العضو**».

فكّر في قطع العضو، (من أهم دفاعات الإنسان ضدَّ الخوف هو الإنكار، ادعاء أن ما يخيفه غير موجودٍ، لذا يبقى الخوف دائمًا، فكر الأب أول ما فكر في حذف العضو)... الأمر لن يتطلب وقتًا طويلًا، سيعود ويقطعه، يواريه ثم يخبرهم بالحكاية كلها، من فقد نصفه يسهل تصديق أنه فقد عضوه... نعم، نعم، هو العضو وحده: «وجدناه بدون عضوه»... ولأنهم لم يروه، سيعتبرونه كاملًا: «**هذا كل ما وجدناه**»، أما لعنة الخلاص من النصف فعلى الجميع أن يتحملوها.

أكد، وأكد على ولده الكتمان، ربما لما تبقى من الطريق، حتى أن الولد صار مستعدًّا لقطع لسانه فقط ليتوقف والده.

استهلكا وقتًا معتبرًا في رحلتي الذهاب والإياب، وكأي امرأةٍ لم تُحدَّد لها قواعد الانتظار، وجدا النجع بأكمله منتظرًا، وبحاجةٍ ملحة إلى تفسير كلمات (أمينة) العجائبية.

تم إعلان كل شيءٍ قبل أن يفتح (محمد) الأب فمه، انجرفت كلُّ

أفكاره إلى الهاوية، وأهمها أن يُبقيَ أمر حجم العضو سرًّا، استبدلها بأفكار أخرى عن اللعنة القادمة، ذلك الشيطان القتيل الذي يرقد عند الحد القصي من زراعتهم.

تأكد من أنه شيطان حين وقع بصره على وجه (أمينة) لترتسم ملامحُها الشبقة في عينيه حتى وسط الجمع، انتابته قشعريرةٌ تشبه البرد لأنها كانت جميلةً ولا تُقَاوم، إنها مصيبة كبرى لو رأوها بعينيه.

وقف الحاج (عوض الصباغ) على رأس الحاضرين من الأهالي:

– ماذا يا ابن (القالع)؟

رفعَ (محمد) الابن عينيه إلى وجه أبيه، وانتظرَ جامدًا، رأى عجزه عن الكذب، لم يشعرْ بالأسى لحال والده، فقد بدا أنه يستعيدُ بطولَته كاملةً، حكايته سيتمُّ رفع الحظر عنها، ما جعله ينتظر ولو لنهاية الحياة.

سحب الأب عينيه النهمتين من على وجه زوجته، أومأ نحو ابنه بعدَ لحظات، إيماءةً تفسر نفسها: «**لن أستطيع منعك، فأنا الآن أضعف من كلماتي السابقة**».

أشار إلى البعيد قائلًا:

– عند أقصى الأرض، يُوجد نصف إنسان، نصفُ إنسان ولا شيء آخر.

***

–3–

– نصفُ إنسانٍ بالقرب من الحافة القصية، النصفُ الأسفل فقط.

هذا ما أكده (محمد) الأب لمنتظريه، دونما انتظارٍ لأثر كلماته على وجوههم، وكأنه نبيٌّ أتى قومَه بمعجزة، وهم ككل أقوام الأنبياء يُكذبون.

تهرَّب من عيني ولده، هذا لا يتعلقُ بالصدق والكذب بل بالضعف، قال أنه سيكذب ولم يقدرْ، أمره بما لم يستطعه هو، تمنى لو أن الأحداثَ القادمة تُضيّع كلماته السابقة.

عمومًا، ما دام الخلق قد عرفوا أولَ مفردات الحقيقة، فعليهم قراءة ما تبقى من القصة بأنفسهم، أراد صادقًا أن يجنِّبَ النجع لعنةً قريبة ولو بالإنكار، وأراد ألا ينغمسَ أكثر في الموضوع، كان على يقينٍ من أن الموج قادم ليغمر الجميع، وليس بينهم من صنع له فلكًا.

ما أكده (محمد) الأب لا يمكن أن ينتظر شروقًا جديدًا، ولأنه من بعد ولده الوحيد الذي يعرف مكانَ النصف تحديدًا، كان في مقدمة المشهد، استعادَ الطريق وتبعه المكذبون –عدا (أمينة) التي أصر على احتجابها في الدار– تجهزوا للظلمةِ المقبلة ولعنوه في سرِّهم.

نصفٌ سفلي لإنسان يعني أن هناك قتيلًا غير معرَّف وأن جسدًا قد يسكن مقابرهم.

بعض النسوة تهامسن أثناء السير: «**هل يكون (محمد) قد قتله،**

وفضحت (أمينة) سره؟ ومن هو القتيل؟» قالت أخرى **«أبو (محمد) لا يقتل، ليس بيننا من يقتل أبدًا»**... لم يدركن أن الأمرَ أعقد من الظن.

بدايةُ قصةٍ منقوصة تفتح البابَ أمام عددٍ لا نهائي من الاحتمالات، كانت المسافة كافية تمامًا لاختمار الظنون، بل والهمس بها، وأشدُّ ما خافه الأب أن يفقدَ قدرة الانفصال عن نصف الجسد نفسيًّا، صورة زوجته التي رآها رغم الناس، ملامحها الجديدة التي لم يعرفْها أبدًا، التي أضاءت ثم خبت سريعًا، والتي ربما ستعود في يوم ما بالتأكيد، شيءٌ وحيد هو كل ما تبقى له من أملٍ، كان بحاجةٍ إلى عيون الجميع الواسعة.

أضاف الزرعُ العفي ضبابًا على الطريق، أظلمَ رغم أن الشمس لم تكن قد سقطت تمامًا، بثتِ النسوة المصاحبات في الجمع خوفًا مضاعفًا بفحيحهن الذي لا ينقطع، توقف الأب أبعدَ من حدود الرؤية الكاشفة، دار في وجوه النساء مترددًا قبل أن يستعير حركة الإصبع من ولده، صنع نقطة التقاء والأرض القريبة: **«إنه هناك»**.

كانت النقطة المشار إليها أكثر إظلامًا من غيرها، أمر الحاج (عوض الصباغ) بإضاءة شعلةٍ من النار، اقترب مصاحبًا رجل الشعلة (سعد الجزار) ومحاولًا الحفاظ على جرأته أمام النساء بالتحديد، (يتوجب على الكبير الاحتفاظُ باستقامة عوده، وعدم احتكاكِ قدميه بالأرض أثناء سيره حتى وإن كانت عظامه ترتعد، تلك هي الضريبة)... أضاف اقتراب الشعلة ضوءًا متأرجحا فوق البقعة المنشودة، أظهرَ المشهدَ بشكل خرافي حتى قبل الظهور.

مع توقفه عن السير، ومع صومهِ وتابعه عن الكلام بدأ الفضول يستدعي أفرادًا من بين الجمع، مع وصول كل فردٍ يتحرر آخر، في النهاية

أحاطوا جميعهم رجالًا ونساءً بنصف الجسد الذي ظل راقدًا على الوضع الذي اختاره (محمد) الأب من قبل.

غاب الصغار عن الموقف إلا بطل الحكاية الأول (محمد) الابن، والذي تسمر إلى جوار أبيه كإصبعه الذي استمرَّ بالإشارة حتى بعد انتهاء الغاية منها.

غياب الصغار يعني أن واحدًا منهم لم يفكرْ سوى بالطريقة التي مارسها الأب منذ ساعةٍ تقريبًا، إنه طغيانُ الجزء على الكل، وانحسار البراءة في حضرة العضو، مرت لحظاتٌ من التصنُّم التام.

- ما كل هذا؟ هل هذا طبيعي؟

تساءل (سعد الجزار) أقربهم للنصف لحظتها.

أشاحت النساء بأبصارهن عندما استعاد الرجال الوعي.

كان جمود الـ(محمدين) قد خلق مسافةً كافية للإحاطة بالصورة الكاملة، وردود الأفعال المترتبة، وجود النساء عادةً يغير من طبيعة ردود الأفعال، ووجودهن كان الأهمَّ بالنسبة للأب، لربما قرأ في العيون دليل براءته، وإثبات طبيعته.

- ما كل هذا العضو؟

التفتوا جميعهم للذي استعادَ لسانه وهو (رضا الخشاب)، ذلك الجلف الذي لا يمرر الكلمات على عقله أبدًا.

كانوا يملكون نفس السؤال بالضبط، لكنه الوحيد القادر منهم

على التساؤل بوقاحتِهِ المعهودة عن سر تلك السنتيمترات الإضافية.

حط سؤالُه على (محمد) الأب كما يحط البرد على جسدٍ محموم، ولم تأتِ إجابة، إن (رضا الخشاب) زوج أخته (نجية) مكتملٌ تمامًا أو يبدو كذلك، كما أن بنيانه متقاربٌ معه.

حاول (مصطفى الأخنف) ابن الشيخ (مأمون الأخنف) –والذي ورث عنه مهنة محفِّظ القرآن– تلطيف التحرُّج بتجاهل السؤال قائلًا: **«إنه مقسوم إلى نصفين، أي لعنةٍ هذه؟»**

لم يألف أحدهم فكرة النصف الإنساني أبدًا لذا بدأت فكرة البحث عما يكمله تراود بعضهم، قطعَ (محمد) الأب طريق الفكرة بكلماتٍ يقينية واضحة.

– لا تهدروا وقتكم، لا نصف آخر في أي مكانٍ قريب، فقط هذا النصف.

لم يخنع البعض، انتشروا مُهدرين وقتًا قصيرًا في البحث، جدية النبرة جعلت إيمانهم بوجود نصفٍ آخر يهتز، بدأ الكلام يسيل، علت الهمهمات، وطغى اللغط على المكان.

بدا أن الحاج (عوض الصباغ) قد آمن بالمعجزة حتى من قبل أن يأتيه الرجال خائبين، صاح في الجمع «**ليس هناك وقتٌ نضيعه، لدينا نصف قتيلٍ، وعلينا تقرير ما سنفعله**».

صمت الحاضرون في مواجهة الجملة الأخيرة، الفعل يتطلب إدراكًا، وهم لا يدركون طبيعة الحدث.

قال (هاشم المجبراتي) بطريقته الناعمة المعهودة، ونبرة صوته الهامسة التي تزداد طراوةً عامًا بعد عام: «**لن نبلغ الشرطة، أليس كذلك؟**»

كانوا جميعهم يعرفون قدر خوف (هاشم المجبراتي) من الشرطة، وقد سرَّب دخولهم الأخير، والذي يرجع إلى عشرين عامًا مضت، خوفًا رهيبًا من أن يدخلوها مرةً أخرى.

قال (سعد الجزار): «**إنها مصيبةٌ لو لم نجد وجهه، وقتها لن نعرف في أي عين ندفنه، أنا مثلًا لن أقبل دفنه في قبر عائلتي، لن أدفن شبحًا مع أهل بيتي**».

بدأ (مصطفى الأخنف) يحدث نفسه بصوت يمكن سماعه للقريبين منه: «**ولا يمكن دفنه بالقرب أبدًا، سنفقد الكثير من أرضنا**».

استعار (رضا الخشاب) أقربهم إليه كلماته، وقال بهمجية: «**ستضيع الأرض لو دفناه في النجع، كما حدث مع جدة (ناعسة)**».

تعرف (ناعسة) كيفية عمل رأس الثور الذي أمامَها، ربما أكثر من زوجته (نجية) التي كانت واقفةً إلى جواره، أبدت تجاهلًا لما قاله (رضا الخشاب)، مالت (ناعسة) –زوجة (عبده الرحال)– على النصف، كانت جريئةً مختلفةً عن بقية نساء النجع، لم تكن أجملهن لكنها جذابة إلى الحد الذي يجعل من الملامح أمرًا ثانويًا، تحسست لحمه برفق والنسوة اللاتي حضرن يمتعضن خلفَها ويرتعدن، ثم قالت: «**انظروا، من الذي يقدر أن يقسم جسدًا بهذه الطريقة؟ إنه حقيقي، لا بد وأن الفاعل لا يمتلك قلبًا**».

بالفعل كان موقع الفصل يشير إلى قسوةٍ بالغة، شيطانٌ أخذ وقته كاملًا في شطر إنسان، وأخفى نصفه العلوي، الفعلة تتطلب وقتًا وجهدًا لا يحتمله بشري، واحتمالية أن يكون حيوانٌ هو الذي فعلها مستحيلة، أكثر ضواريهم توحشًا لا تتعدى الكلب، أو ما يقترب من فصيلته، فليس هناك أي نهش، العجيب أنه لا أثر للدماء أيضًا، ولولا طزاجة الجرح لظنَّ الجميع أنه خُلِقَ هكذا.

تواترت الأسئلة؛ تلتصق فيها علامات التعجب بعلامات الاستفهام: **«لمن ينتمي صاحب النصف؟! ولماذا هو نصف فقط؟! ما ذلك الشيء الذي فعلها؟! ولماذا؟! وكيف؟!»**

لم يمنعهم تعلق أعينهم بالعضو المفارق للطبيعة من طرح الأسئلة، حتى وإن أبدوا تجاهلًا، لكنه التجاهل المرهون بالخجل من المحيطين.

وسط فيضِ الأسئلة قال (موسى البقال) الذي أدرك أن عملية الدفن صعبة: **«إذًا، هل نبلغ الشرطة؟ لن تتحمله أرضنا، أما هم فسيحملونه بعيدًا، بعيدًا جدًّا».**

أحيانًا يكمن الحلُّ في شريك، لكنه شريكٌ مخيف إلى الدرجة التي قد تجعل من كل فردٍ بالنجع متهَمًا، ما لم ينكشف الجاني فالكل جناة، وغياب وجه المجني عليه سيطيل فترة الاتهام، ربما إلى ما لا نهاية.

صرخ (هاشم المجبراتي): **«لا، الشرطة، لا»**.

ربما كانوا ليصرخوا بنفس الكلمة (لا) لولا أن سبقهم (هاشم المجبراتي)، مارسَت (ناعسة) جرأتها مرةً أخرى لتنهي مجرد طرح الفكرة

من جديد، قالت: «**ستكسرنا الشرطة إلى أن تعرف الحقيقة، وهل بيننا من يعرفها؟ وماذا عن (ليلى)؟ سرنا منذ الأزل، دخلوا من قبل وسلَّم الله، وربما لن تنجو هذه المرة، الشرطة لا تنسى أبدًا، والحمد لله أنها لم تعد تتذكرنا**».

كانت كلماتها منطقيةً، لا بد من تعريفٍ، ولا أحد يمتلكه، في أسوأ الأحوال لو أن واحدًا بينهم يعرف فسيخفي السرَّ إلى حين، ستصير كل الديار مستباحةً، وسيتم التحقيق مع الصغار قبل الكبار، والنساء قبل الرجال، سينفتح بابٌ جهنميٌّ على النجع، لن يفلح معه الصراخ، ولربما تطورت الأمور إلى حيث يُجبَرون على التضحية ببريءٍ لغلق الباب، من الأفضل ألا تتذكرهم الشرطة، التحقيقات تعني انفضاح الأسرار، وهم قوم مسالمون مستسلمون لعيوبهم قبل مزاياهم، متعايشون معها.

الوضع أشبه بغريب يحتل دارك، يطمح إلى معرفة حقيقةٍ لا تعرفها أنت، والنجع عاش عمره بعيدًا عن الغرباء، قال الحاج (عوض الصباغ) موجهًا سؤاله للوحيدة التي طرحت سؤالًا منطقيًا: «**وماذا سنفعل يا (ناعسة)؟**»

لملمت بالكاد نظرتها من على العضو، وأجابته محاولةً ادعاء التماسك: «**نحفظ النصف إلى أن نعرف صاحبه، ربما بالبحث عن نصفه الآخر، أو بطريقةٍ أخرى، نحدد وقتها إلى أي قبرٍ ينتمي، لنا أربعة رجال لم يعودوا منذ سنوات، ومن يعلم إن كان منهم أحياء ولهم نسل؟ أو ندفنه في أبعد وأعمق مكان عن هنا، لكني أشعر أنه منا**».

سرت همهماتٌ بين الجمع، شعرت (ناعسة) بإحساسٍ عجيب، يشبه الذي احتل (محمد) الأب عند الرؤية الأولى أنه منها، أكثرهم شعر

بمثل ذلك الإحساس، ربما لأنهم لا يألفون معنى الغريب منذ تأسس النجع بشكله الأول، ضاع النجع من عيون الغرباء.

أرادوا عدم معارضة رأيها، فالبدائل المتاحة كلُّها قاسية مع تنازلاتٍ إنسانية لا يمكن حصرها، وهم يعتقدون أنهم أفضل منها –الأمر متعلقٌ بشعور انتمائه إليهم– أبسطها معاملة النصف كبهيمة لا تستحق قبرًا، وإلقاؤها إلى الهوة السحيقة، مع أن هذا ليس مضمونًا أيضًا، أرضهم المنزرعة في نفس الاتجاه والمقامرة بفعلةٍ كهذه قد تجعل استمرار حياتهم مستحيلًا...

(هل تعرفون؟ يمكن ربطه إلى حصانٍ عفي، وإطلاقه إلى مالا نهاية، ربما يكون حلًّا إذا لم يلتفت العالم إليهم)... ورغم غل الرجال تجاه ما يعتمل بصدور نسائهم، إلا أنهم امتلكوا نفسَ الرغبة العارمة في معرفة صاحب العضو ذي السنتيمترات الإضافية، وهذا أمرٌ لا يُقاوَم على الإطلاق.

***

–4–

خلعت النساء أغطيةَ رؤوسهن بالاتفاق مع الرجال لتكفين النصف مؤقتًا، مشينَ خلف المسير، احتاج النصف إلى أكثرَ من عشر أغطية، وحمله اثنان فقط من الرجال.

في نصف ساعةٍ تقريبًا من السير الجنائزي الصامت كان النصف قد استقر في دار الحاج (عوض الصباغ)، حيث انتقل الزحامُ إلى داره.

الغريب أن النسوةَ أبين الرحيل حتى اللاتي تطوعن بأغطية شعورهن، استعدن غيرها وانضممن للجمع من جديدٍ، كان هناك شيءٌ جاذب لكل من رآه، شيء يعرفونه ولا يعرفونه.

(قدْر الحدث وغياب الحقيقة يضاعفان الفضول، ومن أكثر فضولًا من النساء؟ خاصةً إذا ما ارتبط الأمر بنصفٍ سفلي لذكر له عضوٌ أضخم من مخيلاتهم، هذا بالإضافة إلى وجود مصيبةٍ كبرى في قتيل يحتاج قبرًا).

أضفت الجدران بعضَ الهدوء والمنطقية للحوار، فبدأ حديثٌ عاقل إلى حد كبير، هناك نصف إنسان، وذلك النصف لا يكفيهم أبدًا لمعرفة صاحبه، لم ينقصْ من أهل النجع واحدٌ، (ناعسة) تعرف النصف السفليَّ لزوجها (عبده الرحال) –لا بد وأنه في طريقه إليهم– الذين غابوا لهم سنواتٌ طويلة، وليس هناك مبررٌ لعودتهم رغم أنها احتماليةٌ مستحيلة، لكنها لا تساوي الصفر تمامًا، لفتَ أحدهم أنظار الجميع إلى موضع الحدث، أنه عند المنطقة القصية من أرضِهم، تلك

المنطقة المحاطة بجرفٍ عظيم، هذا أمر خطير بالفعل، ما دامت السماء لا تُسقط أنصاف بشر، إذًا لا مفر من أن صاحب النصف وقاتله قد مرا من الطريق الوحيدِ لأرضهم، ذلك الطريق المكشوف على ديارهم، والذي يعرفه الرحّالون أكثرَ من أي شخصٍ آخر، مدق حجريٌّ شديد الانحدار، سيفكر القادم ألف مرةٍ قبل الصعود...

هل الأمر يستحق العناء؟ الغرباء لن تفلتهم العيون، لم يرَ أحدُهم غريبًا –هذا ما أكده الجميع بلا استثناء– وهذا لا ينفي أبدًا وجود قاتلٍ ونصف قتيل، من لا يملك وجهًا لا يملك قبرًا، وقبورهم هي المنجى الوحيد، ليس بينهم من يقدر على القتل بمثل هذه الطريقة، ربما هي طريقة القطع التي أخرجت فكرة البحث عن قاتلٍ بينهم من حساباتهم ولو مؤقتًا، هم يعرفون ذلك، لا أحد يقدر على فعلها، ولا حتى (سعد الجزار)، أحدهم قتلَ، وسرق نصف ضحيته العلوي، أو أخفاه كي يفلت بفعلته، فلا بد من معرفة صاحب النصف عن طريق الحصول على النصف الآخر، أو باكتشافهم لرابط لا شكَّ فيه بينه وبين أحد الأحياء، ما قد يجعل الوضع أسهل، لا بد من بديلٍ للوجه يمنح النصفَ مجرد حق الدفن، وينزع عنهم ذلك الشعور الجمعيَّ الغريب بانتمائه إليهم، كانوا جميعهم يعرفون واحدًا، وكلهم يخجلون من مجرد التلميح له وسط ذلك اللغط.

(لم تكن أول حادثةِ قتلٍ، لكنهم في المرات القليلة التي فعلوها على فتراتٍ زمنية متباعدة، امتلكوا وجهًا، وبالتالي عينًا للدفن... في عاداتهم يكون حكم القتل جماعيًّا، ينفذون به إرادة الكل، ذلك في أجيال سابقة).

كان (محمد) الابن لم يزلْ موجودًا، أشار إلى العضو والذي يبدو

أنه أخيرًا وجَّه نظره إليه:

– ما هذا الخرطوم يا أبي؟!

وكأن الولد الصغير قد هتكَ سترهم الشكلي بسؤاله، صفعه أبوه على قفاه بقسوةٍ غير معتادة –وكانت مرته الأولى التي يفعلها أمام الناس– ليس لإساءة الأدب، بل لأنه خالفَ الرفض الجمعي للخوض في ملحوظته البريئة.

بالفعل صدمهم الصغير بما يتحايلون على كشفه، فأغمضت النساء عيونهن وتحرج الرجال بشكلٍ واضح، إلا أن (رضا الخشاب) نطقَ بفظاظته المعهودة: «**نعم، ما كل هذا العضو؟ هذا ليس حقيقيًّا**».

تحوَّل شعور الغضب عند (محمد) الأب إلى ارتياحٍ، لدرجة أنه شعر بالذنب لصفعه ولدَه، فقد كان تكرار الرجل لسؤاله ناهيًا للظنون تمامًا، وربما سؤال صغيره هو أهم ما قام به الطفل حتى وقتها، لقد فعل شيئًا يستحق الإثابة لا العقاب، انتقل الحوار بشكلٍ كامل إلى مسارٍ جديد، ولم ترغبْ واحدة من النساء في المغادرة، حتى أن الرجال تعجبوا من تلك الطبيعة الجديدة التي حطتْ عليهن، ولم يجرؤ واحدٌ على مجرد إبعاد من تخصه، الكل شريك في هذه المصيبة والنساء أيضًا.

قالت (ناعسة): «**لا بد وأن نحصل على إجابةٍ بسرعة، قبل أن يتعفن النصف، إنه نصف إنسان**».

سألت (ضاحي الحفار)، وهو من يتولى أمر الدفن بينهم: «**كم يومًا بقيَ ليتعفن النصف؟**»

قال (ضاحي الحفار) بفخر من اكتشفَ قيمته للتو: «**الجسد يبدأ تعفنَه من لحظة الموت الأولى، ربما ثلاثة أيام لينتفخَ، ويمكن تعطيلُ هذا بالثلج، ضعوا عليه ثلجًا حتى نؤجل عفنه أربعة أو خمسة أيام**».

مرةً ثانية بدأ حوارٌ طويل شارك فيه الجميع بلا استثناء، قرروا استخدام فكرة (ابن الحفار) وتولت النساء أمر وضع الثلج فوق النصف بمحض إرادتهن، تحول تعجب الرجال إلى نوعٍ من الغيرة الشديدة غير المعلَنة، لكن أحدهم لم يجرؤْ على إعلانها أمام الآخرين، وبدأت رحلة الثلج.

***

حاولت (أمينة) استقراء صمت زوجها وشروده، بدا لها خائفًا كما لو أنه الفاعل، كان قويًّا إلى حدٍّ ما، إلى الحد الذي يمكِّن جدران جسده من الصمود أمام زوجته، لكنه حقيقةً كان يرجف في وهنٍ، ليس بسبب الموت، فالموت شائع حد الاعتياد، والاعتياد يسرق الملامحَ حتى من الموت، إنما بسبب الأثر المتوقَّع، استبصاره للشر القادم، واضحٌ جدًّا إن الشعور لم يكن مبالغًا، هذا بالفعل ما أحسه منذ اللحظة التي رأى النصف فيها وبالأحرى عضوَه، النار تبدأ، يمكننا التأكيد على أنه أولُ من أدرك المستقبل القريب منهم، وقد كان محقًّا.

(أحيانًا تكمن المصيبة في عدم قدرتنا على التعبير عنها، الأمر هنا لا يتعلق بالفصاحة أبدًا، وإنما بتشويش الرؤية، رغم وضوح الصورة).

أخذت (أمينة) تهدهد ابنتها الصغيرة في توترٍ، للمرة الأولى سكتت عن الغناء، كانت كبندول ساعة، يهتز إلى الأمام وإلى الخلف في حركات

جامدةٍ تشبه الانتظار، لم تكن قد حضرت الموقف كبعض الأخريات، وصوت دبيب النساء يملأها بالدهشة، أرادت معرفةَ ما يجري وصمتُ زوجها يمنعها مجردَ السؤال، لم يكن أمامها سوى أن تحرك الوقت، لربما نطق الزوج، وربما راح الابن في نومٍ حقيقيٍّ بدلًا من التظاهر به.

استوى (محمد) الابن على الجانب الذي يمنح به ظهره للحياة، تمنى لو زادت أمه من حركتها البندولية فتستعجل النهار، ما زال يمتلك قصته كاملةً، ويريد رؤية أثرها على وجوه أقرانه الصغار، كان لم يزل يعتقد في صواب ما فعل، هذه طبيعة الصغار، يهرولون نحو آبائهم وهم يعلقون فأرًا ميتًا حد التعفن، لقد اكتشفنا شيئًا سيئًا، وينتظرون إطراءً في المقابل.

الأقدام الطرية ساقت مكعبات الثلج، من مبرد (سعد الجزار) كان الوحيد الذي يلزمه مبردٌ لحفظ اللحم، لذا صار أتعسهم في تلك اللحظة، كسروا الثلج وساقوه إلى دار الحاج (عوض الصباغ)، تحديدًا إلى الحجرة الخارجية من داره الواسعة، حيث يرقد النصف ذو العضو المبالَغ في سنتيمتراته، خطواتٌ ناعمة متسارعة حد التسابق، لم يكنَّ أبدًا بمثل هذا القدر من النشاط والحيوية، ولا بمثل هذا الانجذاب، انسقن وراء الرغبة العارمة في مشاهدةِ النصف مراتٍ ومرات، أو هو النصف الذي فرض منظورًا جديدًا لمعنى الذكورة، كنَّ كالمخبولات تمامًا، وبدأ شعور الرجال بالشر المحيط يتنامى مبكرًا.

تصاعدت وتيرة الرواح والغدو، بدا أن الأمر لن يتوقف مطلقًا، ومع كل مرةٍ يقل عدد مكعبات الثلج وحجمها، دون أدنى وعيٍ تقاسمن اللوح في قطعٍ صغيرة، تصغر أكثر كلما شارف الثلج على النفاد.

حملن الثلج فوق رؤوسهن، وحين يصغر حجم المكعب يسيل الماء أكثر، ابتلت الأرض، والتصقت العباءات باللحم حتى صرن أشبه برموز (أبيقورية) شديدة الفتنة، صرن أجسادًا طُلِيت بطبقةٍ رقيقة من القماش، حالة المابين –ما بين السترة والانفضاح– مثيرةٌ إلى الحد الأقصى، والأكثر أنها كانت حالةً لا واعية، لا تلتفت إلى عيون الرجال المحملقة، امتلكن ملامحَ جديدةً، اكتشف الرجال نساء النجع للمرة الأولى، رأوهم بعينٍ أخرى، عينٍ غريزية وقحة، وربما عينٍ حقيقية، متناسبةٍ مع طبيعة الوجود، حين استعادوا عالمهم شعروا بالعار، تهربوا من النظر في وجوه بعضهم البعض، لكنهم علموا حقيقة ما قد فعلوه.

***

-5-

عاد (عبده الرحال) من جولته الشهرية في حوالي السادسة صباحًا، هو أحدُ أفرادِ العائلة الوحيدة التي كُتِب لها الخروج من القريةِ حيث العالم، والعودة من جديدٍ، ربما هي العلاقة بين الرجال وزوجاتهم أو إنها الوراثة، ينقل البضائعَ الزراعية من القرية، ويستبدلها لهم بما ينقصهم -للأمانة لم يكونوا بحاجةٍ ماسة للعالم- إنه صاحب جزءٍ مهم من هذه القصة التي تتشكل، رغم غيابه الدائم.

يستخدمُ سيارة النقل البالية والتي ورثها عن أبيه، كان للوراثة عمومًا أثرها البالغ في تشكيلهم، الابن يرث الصورةَ، المهنة، والكثير من طباع أبيه، وكان (عبده الرحال) يشبه أباه في كلِّ شيء، صورته، مهنته، وعشقه للمسافات، يمضي أكثر عمره بعيدًا، ويقترب ثلاثة أيام بالشهر، ثلاثة أيام فقط لا غير.

يمكن ببساطةٍ تخيل حالة الاحتباسِ الجنسي التي يستقبل بها أيامه الثلاثة بعد فترةٍ مجدبة من الترحال، حالةٌ من الاشتعال الأهوج لا يمكن السيطرة عليها إلا في آخر يومه الثالث.

تعجب حين دخل الساحة بسيارته، وفي موعده المنتظر دائمًا، دونما استقبالٍ، شعر بأنه ربما فقد أهميته لدى الجميع، لو أن هذا حقيقيٌّ فالأمر متبادَلٌ بينه وبين النجع منذ ورث الترحال، كلبان كانا يتناوران فوق كومة من القش بلا رغبةٍ حقيقية في الاستمرار، يبدو أن الكلاب أدركت دورها في الأحداث القادمة، فآثرت الراحة والانعزال إلى

أن يحين الوقت.

«كلبان فقط، هما كل ما تبقى من النجع»...

قالها لنفسه مازحًا، كان سليطَ اللسان إلى حدٍّ ما، أراح سيارته المسنة، ترجَّل مدهوشًا وسار باتجاه داره قائلًا: «**لو أنهم ماتوا، أتمنى ألا يفيقوا من موتهم قبل يومي الثالث**».

ظنَّ من قبل أن أرضهم المجدبة في الجانب البعيد لمقابرهم، لم يعرف متى أصاب الجدب أهل النجع أنفسهم؟

تسلل همس النسوة أبعدَ من داره قليلًا، استطاع بسهولة تمييز صوت (ناعسة) زوجته واستخلاصه من بين زحام الأصوات، لم يبشرِ الوضع بأي خيرٍ، اجتماع النساء غالبًا نذير شؤمٍ، وقد حذر سالفًا من حدوث هذا في أيام تواجده على الأقل ما جعله يركل باب داره في خشونة، لينفتح على كل الجالسات.

وكأن النجع قد جُنَّ تمامًا، نساء القرية أخلين الساحة ليتكومن في داره، لو علمَ أن الرجال تكوموا أيضًا في دار الحاج (عوض الصباغ) لتضاعفت دهشته، كل شيءٍ يبدو مريبًا وهو لا يريد معرفة أي شيءٍ الآن، قرابة الشهر من الحرمان مدةٌ قد توقفُ عقلَ ذكرٍ مكتمل، ولم يتمرد أبدًا.

(لا يمكن زعم كونه يتلذذُ بعذابه، لربما أحب فكرةَ الراحة بعد معاناةٍ طويلة مع الألم، الانفجار الكبير الذي تتبعه لذةٌ، الوصول بعد غيبةٍ طويلة، الوقتُ ينسي، والنسيان يجعل بعده كل لقاء كأول لقاء).

لحظة انفتح الباب سرت موجةٌ صادمة من التحرج بين النسوة، نفد الثلج ولم تكن قوتهن قد خارت تمامًا، استأذنَّ تباعًا في الانصراف، بعد تبادل نظراتٍ مرتبكة وذات مغزى مريب.

حاولت (ناعسة) استباق القادم، بدأت الإجابةَ عن بعض التساؤلات الواجب طرحُها في مثل هذا الموقف.

أوقفها بجملةٍ وحيدة: «**أريد راحتي**».

بدا كرجل من الصفيح حين تحرك باتجاه الغرفة الداخلية، لم تشارك (ناعسة) زوجَها موقفًا مشابهًا من قبل، فتعجبت تلك الروح الباهتة التي رأتها، كان في كل مرةٍ يأتيها متسللا من الخلف، يحملها إلى الداخل ويبدأ بدايةً قوية وممتعة تشبه النهاية دائمًا، كانت مقتنعة تمامًا أن مجرد حملها هو نوعٌ من المداعبة، أحبتها دائمًا، وحين تغيرت مفردةٌ واحدة من مفردات البداية اكتشفت أنه كان يبحث في كلِّ مرةٍ عن راحته، أعتقد أنها لن تبرر خطاياها في حقه بالاعتماد على شعورٍ كهذا فقد أتى الشعور متأخرًا، متأخرًا جدًّا بحيث لا يُعوَّل عليه كعذر للخيانة.

سارت وراءه ليستخدمها مجمدةً، وتجاهلَ جمودها، فقد كان صادقًا حين قال: أريد راحتي.

طلع الصباح وقت انتشرت النساء في النجع، ثم انطفأ سريعًا حين أغلقن الأبواب، وبدأ ليلٌ نهاري عجيب، نام الجميع حتى ذلك الابن الذي انتظر بداية حكايته استسلم، وكأنه تذكر فجأةً نسيانه للنوم، ناموا بعمقٍ شديد، ولم يفيقوا حتى انتصف النهار، لكنهم لم ينسوا

تشغيل مبرد (سعد الجزار) بأقصى طاقته.

***

-6-

هبَّت النساء من النوم في فزعٍ، ربما تشاركن كابوسًا واحدًا أن النصف ينتفخ وينتفخ حتى صار قادرًا على التحرر من جاذبية أرضهم، ارتفع رويدًا رويدًا إلى سماء النجع كمنطادٍ عملاق ترقبه العيون، حجب الشمس تمامًا ليحط الظلام، أظلمت ملامحُهم، ولم يعدْ أحدهم يميز الأنثى من الذكر، ضاعت وجوههم فبدأوا الصراخ، وبينما هم يصرخون إذ بولدٍ صغير مسلوب الملامح أيضًا يمسك قوسًا ويصوب سهمه إلى السماء، انفجر النصف مخلفًا غيمةً عظيمة غطت على النجع بأكمله وأفسدت رائحته، بينما أمطرت السماء فئرانًا ذيلها مقطوع، حلمٌ واحد مُشترَكٌ رغم اختلاف الطبائع، والأرواح.

حملت كل واحدةٍ منهن واجب حفظ النصف على عاتقها كأنها الوحيدة، لا بد من الجدية والصرامة لتتخفى رغبةٌ مهتاجة في التأمل وراءها، الحفظ لم يكن المحرك الأساسي بل الرؤية، ولكي تستمر الرؤية لا بد من الحفظ.

وضحَ ذلك مع كل واحدةٍ تصب حملها اليسير من الثلج فوق النصف الذي يبدو أنه شرب كل ثلج البارحة -ربما مات عطشانًا- تتجمد للحظات تملأ المسافةَ الزمنية بينها والأخرى، وفي ذلك الموقف بالذات أدركن القيمة الحقيقية للوقت.

لم ينتظرن استفاقة (سعد الجزار)، فتحن مبردَه بمساعدة زوجته (صالحة) -هو الوحيد في النجع كله- كان يكفي حاجة الجميع، ولم

يكف ليلةَ حفظٍ واحدة في غياب الوعي.

قمن بتفتيت الثلج إلى مكعبات أصغر بكثير من سابقاتها، بدأن المشوار مرةً أخرى، زاد عددهن بقدر معرفة الباقيات، الخطوات ثابتةٌ متساوية إلى حدٍّ بعيد، كأنما اتفقن من دون اتفاق على حفظ المسافات.

حين أفاق (عبده الرحال) من نومه العميق لم يجدْ (ناعسة) إلى جواره على غير العادة، غسل عن جسده أثر ليلته الماضية، كان قد استعاد رأسَه بعدها، استعجل الخروجَ لربما وجد تفسيرًا مرضيًا لتلك الحالة العجائبية التي سيطرت على الوجود من حوله.

أول من قابله كان (محمد القالع) الأب، تصافحا في غير ودٍّ على الأقل من جهة (محمد)، لم يتفقا من قبل على شيءٍ، وكانت العلاقة بينهما فاترةً على الدوام، حاول استدراجه في الحديث إلا أن الحديث فقد معناه حين أشار (محمد) إليه أن يتبعه إلى دار الحاج (عوض الصباغ) لأنه لا يمارس شيئًا محددًا، وتحت وطأة الفضول تبعه بعد أن حبس أسئلته مؤقتًا.

عاد كل الرجال الذين خرجوا نهارًا لمسح منطقتهم المنزرعة بحثًا عن النصف الآخر أو حتى غريبٍ حي، تأكدوا من سرابية الهدف، وأعلنوها للمرة الثانية والأخيرة: «**لا نصفَ آخر، ولا غريبَ قاتل**».

لحظات واكتمل الجمع الذكوري في مضيفة كبيرهم، غاب فقط (بديع المزين) بسبب مرضه المزمن، والذي أخبرتهم (ليلى) –الصغيرة دائمًا– ألا شفاءَ منه.

بدأ الحديث بالصمت، كعادة الحادثات الكبرى إلى أن تحركَ لسان

الحاج (عوض الصباغ) متسائلًا:

– وماذا بعد؟

تداعى الحوار بعد سؤاله: نصف قتيلٍ، عضوٌ ذكري بالغ الطول، النساء وأفعالهن، شيطان، الشرطة، الحرمات، الأرض، مصيبة.

أنصت (عبده الرحال) إلى حواراتهم ينتشل منها الكلمات الرنانة، كلُّها تؤكد أنَّهم فقدوا صوابَهم، النجع بأكمله ممسوسٌ بالجنون.

– هل تخطيتم الأرض المحرمة؟ لقد جننتم يا ناس!

ألقاها (عبده الرحال) في وجوههم بلا استثناء متناسيًا أعراف السن والمقام وصلات القربى، حتى أنه نسيَ جهله بما يتكلمون عنه.

أشار الحاج (عوض الصباغ) إلى أقرب الرجال منه، وكان (سعد الجزار) الذي فسر إشارته جيدًا، أمسك بيد (الرحال) وساقه إلى حيث يرقدُ النصف، بينما تابعوا هم في جديةٍ بالغة.

رأى في سيرِه زوجتَه (ناعسة) تحمل قطعةً من الثلج فوق رأسها، الجلباب يكاد يشفها، وجد جميعَهن يفعلن المثل، يتحركن بشكل ميكانيكي لا يعبر عن شعورٍ، الشيوع يجيز اللامعقولات أحيانًا، فقد قدرته على استحداث دهشةٍ جديدة فلم يسألها أسبابًا، دلف إلى الحجرة الخارجية من دار الكبير ليقف مباشرةً في مواجهة النصف الذي التحف الثلج.

نصفٌ تنقصه الحركة فقط ليقتل الجميع فزعًا، سأل الذي ساقه:

– ما هذا؟!

أزاح (سعد الجزار) قليلًا من الثلج ليتكشَّف بعض النصف، برقت عينا (عبده الرحال) وسقطتا على عضوه، كان مكموشًا كحبل سري طويل، كمصدر الحياة في ما تبقى من الجسد.

حدَّثه (سعد الجزار) بكلمات مفادها أنهم وجدوا النصف في المنطقة القصية من الأرض المنزرعة، ولا يملكون حتى لحظتها تعريفًا لصاحبه، أما النسوة فيحفظنه في الثلج إلى أن يتعرفوا عليه، لن يقبل أحدهم دفنَ النصف في عين عائلته، وكل الأمور تسير باتجاه فقدانِ أرضٍ جديدة.

ربط (عبده الرحال) أطراف الحوارات السابقة بما رآه، فازدادت دهشتُه، وغيرته.

تابع (سعد الجزار) في انكسار: «**هذا النصف سيخرب بيتي، لا أحد يقدر على منع النساء من حمل الثلج إليه، وقد يفسدُ كل اللحم عندي، انظر إليهن، لقد فقدن ألسنتهن منذ البارحة، هذا هو الجنونُ بعينه**».

انفجر (عبده الرحال) في وجه الجميع بمجرد عودته إليهم:

– كيف تسمحون لنسائكم برؤية ما رأيت؟ ألا تستحون؟

سرت حالة من الذهول بينهم، تحولت بعد لحظاتٍ قليلة إلى الاستنكار، بما يعني: لست من ينكر هذه الفعلة يا زوج (ناعسة)، الوحيد الذي لم يكن يمتلك نفس الدلالة هو (محمد) الأب، كان –كما

قلت- يعرف أن لعنةً حلَّت بالنجع، ولم يكن يعرف أن (ناعسة) لعنتهم الأخرى، أو أنها تمتلك صورةً أخرى غير التي عرفها.

(نرتكب كل الموبقاتِ المتاحة، ونبرر ذلك بأن غيرنا يرتكب فوقَها، كي لا نحتقر أنفسنا، هذه طبيعةٌ بشرية ربما غالبة).

تجاهلوه وكأنه ظلٌّ معلَّقٌ على جدار مظلم، ثم تابعوا الحوار.

وبالرغم من جهاد أغلبهم لتجنب سيرة العضو المميّز للنصف إلا أن الرأي النهائي صب في مصلحته، كان ولا بد من نقطة بدء لتعريفه وليس أوضحَ من حجم العضو، اتفقوا على أنها وراثةٌ والتوريث لا يُميز، أكيدٌ أن أهله يملكون نفس الحجم أو على الأقل واحد منهم، هذا سيحل المشكلةَ المتعلقة بالأرض تقريبًا.

في الواقع أربعةٌ هم كل من خرجوا في سفرٍ طويل إلى خارج النجع من هذا الجيل الحي، وكالعادة لم يعدْ أحدهم أبدًا، (لا أجد سببًا وجيها لانقطاعهم عن العالم سوى أنهم حددوا مرادهم من الحياة، العيش في أمان، مجرد العيش في أمان، وقد جاء أجدادُهم الأوائل من ذلك العالم بالتأكيد، رأوه وقرروا اعتزاله ثم ورثوا كل شيءٍ لأبنائهم، بدايةً من الاكتفاء وحتى الخوف).

واحدٌ من الراحلين ينتسب إلى عائلة (المجبراتي)، وهو ابن (هاشم المجبراتي)، والذي لا يسمونَ أبناءَهم باسمه منذ انقطعت أخباره... الثاني إلى عائلة (القالع)، وهو أخو (محمد) الأب في حادثة التمردِ الوحيدة على عهد الذكر الوحيد... الثالث إلى عائلة (الرحال)، هذا لا أعرف قصته تفصيلًا، قالوا أنه رأى الحياةَ بالخارج أفضل، لم يستطع

إقناعَ زوجته بالرحيل معه فطلقها... أما الرابع فكان أخَ الحاج (عوض الصباغ) الأصغر، والذي غار منه كبيرهم فحُكِم عليه بالرحيل، وكل أهل النجع لا يعرفون هذه الحقيقة حتى هذه اللحظة.

(إن المزج العجيب بين دور النجع، وتشابُك النَسَب لا يسمحان بتجنيب أحدِهم، وإخراجه من دائرة الاهتمام، انغلاقُهم المطلَق جعل منهم عجينةً بحجم النجع ما يجعل الانتسابَ إلى عائلةٍ بعينها لا يمنع الانتسابَ إلى الباقين، وكان عددهم بمقاييس الكثافةِ محدودًا).

ذكرَهم (مصطفى الأخنف) بالاسم، ثم تابع: لا أحد يعود إلى هنا أبدًا، ولو كان نصفًا، كل من غادروا ضاعوا منا أو ضعنا منهم، لكننا على الأقل أحياء.

كلهم يعرفون أن الراحلين لا يعودون إلى النهاية، مع هذا استعاد الغياب أهميته، يدركون حجمَ المصيبة ما يمنح الأشياءَ كلها أهمية.

كان لذلك الطرحِ دلالته المشينة فقرروا البحث بمعزلٍ عن النساء، أقسموا أن يظلّ الأمر سرًّا بين الرجال.

بدأ (سعد الجزار) بنفسه، شلحَ جلبابه أمامهم كاشفًا عن عضوه قائلًا:

- القتيل ليس مني.

قصدوا هذه الفعلة بالتحديد، انتظروا فقط الذي يجرؤ على فعلها أولًا، ومن بعد (سعد الجزار) -المعلوم عنه قلة الحياء، وانكشاف الوجه- سقطت ورقةُ التوت، بدأ الحضور في الكشفِ عن أعضائهم

المقدسة، كلما سقطت ورقةٌ خرجت تنهيدةُ ارتياح من صدر (محمد) الأب، وكلما انكشفَ سِترٌ سقطت عنه التهمة مبدئيًّا، وتنغلق عين في وجوههم.

تجرد الجميع من خباياهم عدا ثلاثة فقط، (محمد) الأب، و(عبده الرحال)، وكبيرهم الحاج (عوض الصباغ)... كان الأمر مقبولًا بالنسبة للكبير، فالعادةُ تقتضي أن الكبير لا يشبه الباقين، وأما الحقيقةُ فإن (عوض الصباغ) يخجل جدًّا من حجم عضوه شديد الضمور، بالطبع سيحملونه إثم عدم الإنجاب حتى لحظتها، الأمر الذي سيلغي فحولَته المتوقَّعة أمام من يكبرهم، هذا حسب معتقدِه هو بالطبع.

عمومًا يجوز للكبير كسرُ القواعد، خصوصًا بين هؤلاء.

أما (محمد القالع) الأب فعل نفس ما فعله الشيطان، انتظر ليرى ونسي أن يسجد، ووقت الجد طاوعَ كِبره ليرضى باللعنة على الانكشاف، هذا ما رأوه، وقد كان خجولًا بالفعل، ربما هي صفة لا ترضي تساؤلاتهم، لكنها كافية جدًّا بالنسبة لرجل لم ينكشف على زوجته أو عشيقته.

– لن أمارس هذا الهراء!

قالها (محمد) الأب كما لو أنه أفاقَ لتوه من الرؤيا.

صدَّق (عبده الرحال) على جملة الآخر كأول مرةٍ يتفقان فيها على رأي، وشاع اللغط بين الحاضرين، انصرفا دون بادرة استئذانٍ؛ لتبدأ مرحلةٌ جديدة من الشك وكشف المستور.

***

يومٌ وحيد هو كل ما مرَّ بين اجتماع أهل النجع وتلك التغيرات التي ألمَّت به، انصبَّ هم النساء على حمل الثلج، واستراق البصر، أو التأمل إذا ما سنحت الفرصة، أهملن في المقابل كل واجباتهن حتى أن الرضَّع صرخوا جراء النسيان، كان الجلد قد بدأ في الانكماش، وبدا أكثر سمكًا، لكن ذلك لم ينقصْ كثيرًا من حجم العضو الذي ظلَّ مجاوزًا للمألوف.

في المقابل تأثر لحم (سعد الجزار)، جلسَ ممسكًا بقطعةٍ من لحمه، نشرها أمام حانوته وقد تغير لونُها من الأحمر الوردي إلى الداكن، لن يُجبر أحدَهُم على شراء هذا اللحم حتى وإن لم يكنْ قد فسد تمامًا، وستستمر النساء حتى يفسد ما يعني خرابَ داره، (غالبًا سيظل اللحم يفسدُ في نجعهم أسرعَ من المعتاد، وهذا هو سرُّ توقفه عن ممارسة الجزارة فيما بعد).

اعتقدَ في البداية أنهم سيشترون كل اللحمِ مقابل الثلج، وأيقن بعد يومٍ واحد أن النساء تحت تأثير النصف، لا يعبأن بالجوع ولا حتى الصمت، شيءٌ مخيف يسوقهن يمنع العيون من الالتفات، فصار غير مرئي.

جلسَ (محمد) الأب في داره ينتحل دور زوجته (أمينة) التي انسابت مع السيل، لم يقدر ذلك على منع طفلته من الصراخ، كانت جائعةً إلى أقصى درجة.

دقَّ الأرض بقبضته في غضبٍ وشراسة، أقسمَ أنها المرة الأولى والأخيرة، ولو اضطر إلى قطع نصفها السفلي.

- كان حقيقيًّا، انتظرته فقط أن يتحرك.

أفرغ (محمد) الابن كل ما بصدره للصغار، بالفعل أضاف من مخيلته ما قد يجعل الحكاية أكثر إبهارًا، وما يجعل عيون رفاقه تبرقُ عن آخرها، كعادتهم صدقوه، أضاف تفاصيلَ أكبرَ من عمره، تتعلق بالقاتل الغريب عنهم، حجمه، شكله، وملامحه المخيفة، وحشيته في التهامِ رأس القتيل، ثم تجاوز شهيته بعد استساغته للرأس وأكلِ النصف العلوي بأكمله.

– لا بد وأن طعمه لذيذ!

قالها الابن، وامتعض الباقون:

– كانت أسنانه مثلثةً، صرخ في وجهي حين رآني وصعد إلى السماء، وهذا هو السبب في أنه لم يلتهمْ باقي الجسد، أنا من حافظ على النصف الموجود.

الأمر غير معقولٍ في الأصل، لذا فإن إضافة بعض اللامعقولات مقبولٌ، حتى من فم طفلٍ لم يتجاوز العاشرة.

تردد (محمد) الابن وهو يقول:

– لكن هناك شيءٌ غريب في النصف المتبقي، لديه خرطوم طويلٌ، وكأنه قدم ثالثة.

ظلَّ حجم العضو وطوله خارج حسابات الصغير إلى اللحظة التي صفعه أبوه فيها على قفاه، والسبب سؤالُه عن سرِّ ذلك الخرطوم، انشغل وقتَ الصفع بحاله وخجله فلم يسمعْ ما قِيل بعدها، هو لا يدرك إلى أي مدى يمكنُ للعضو أن يطول، وبالطبع كان متشككًا في أن

ذلك الخرطوم عضوٌ أصيل من الجسد، عندما ذكرَ ملحوظته للصغار في براءة، قال أحدهم كاشفًا عن عضوه:

– هل يشبه هذا؟

شاع الضحك بينهم، وقال الابن: «**هو في نفس المكان، لكنه أكبر بكثير، يشبه يد الفأس تماما**».

لم تنفِ جملته أو تؤكد فتلقفوها ليبدأ اللعب، أخذَ كل واحدٍ منهم يقيس عضوَه في حالة الانتصاب الكامل ثم يخبر الآخرين، يكذبونه فيفعلها في وجوههم، من وقتها صارت لعبةُ قياس الأعضاء شائعةً بينهم، يمارسونها فقط عندما يغيب الكبار، في نهاية كل لعبةٍ يتم اختيار الفائز، العجيب أنه يتغير في كل مرةٍ، هذا لا علاقة له بالنمو، مارسوها يوميًّا وأكثر من مرة في اليوم الواحد، مع كل سباق يتغير الفائز، ومع تكرار المنافسة وتكرار منح لقب الفائز ارتبط النصف لديهم بذات الصفة، كانوا ينطقونها (فايز)، ذلك الاسم الذي سمعوا عنه من قبل في حكاياتٍ متناثرة، لكنها حكاياتٌ غامضة مشكوك في صحتها غالبًا، وصار النصف (فايز).

– سأسمي ولدي الأول (فايز) يا أمي.

قالها الابن لأمه (أمينة) في غياب الأب، لم تكنْ تعرف إلى ماذا يشير الاسم تحديدًا، إلا أن الاسمَ غير محبَّبٍ، بل ومحجوبٌ عند أهل النجع منذ زمنٍ، طوقت فمَه بكفها، وقالت مهددةً: «**لو سمعك أبوكَ سيقتلك من الضرب**»، كثيرًا ما أخبرته أمه أنه سيموت ضربًا، ولم يمت مرةً واحدة، لذا تجاهل تهديدها وقال بصوت خفيض: « **سأسميه (فايز)**».

رفضَ الحاج (عوض الصباغ) كبيرُهم الكشف عن عضوه، فمضغَ رغبته المتكررة في توجيه أي اتهام لـ(محمد القالع) و(عبده الرحال)، تكفَّل (مصطفى الأخنف) بتوجيه التهمة لاثنين لا يساور أحدهم الشك في عدم قدرتهما على القتل: (محمد) الأب المزارع الأليف و(عبده) الغائب دائمًا وغير المهتم، بدا أنهم يضيعون وقتًا، هذا لا يتناسب مع سرعة تعفن الأجساد بعد الموت، استقروا على الانتقال إلى حلٍّ بديل وعدم التوقف طويلًا عند الاثنين ولو مؤقتًا.

في صباح اليوم التالي، صرخت (ناصرة) زوجة (بديع المزين) –وهي الوحيدة التي لم تصبها لعنةُ الثلج لكونها دائمًا مع زوجها ترعاه– لم يتشكك أحدهم في أن معاناته قد توقفت، وأن (ليلى) –الصغيرة دائمًا– لا تخطئ، كعادتها، تجمعوا أمام الدار المكلومة، انتظروا مقدمَ الكبير، الذي لم يتأخر كثيرًا، اصطحب معه (ضاحي الحفار)، أفسحوا لهما المجال وسط نحيبِ (ناصرة) وحدها، لم يكن للنساء حضورٌ عداها، صحبهما (سعد الجزار) من أمام الباب.

عرفوا في تلك المرة إلى أي مدى شاهت جبلتهم، أول ما فعله (سعد الجزار) وقت دخلوا حجرته أن كشف عن عورة المُتوفَّى، وشدَّ عضوه برفق ليتأكد من طوله، من الطبيعي تجريدُ الميت لتغسيله وتكفينه، وغير طبيعيٍّ أن تسبقَ إرادة الممارسة الطقسية للجثة إرادةٌ أخرى، تريد الربط بين جسده ونصف جسدٍ آخر، بدأ (ضاحي) عمله، وخرج الحاج (عوض الصباغ) إلى المنتظرين، شيءٌ خفي جعلهم منتظرين دونما اعتبارٍ لجلال الموقف، أعلن بعينه للجميع (أنه طبيعي)، وأكدها بعده (سعد الجزار) رغم عدم حاجتهم للتأكيد.

سار الرجال في جنازته منكسين الرؤوس، يحملون إثم تعريته في موته، تساءلوا عن سبب فعلتِهم، لم يكونوا بحاجة للتأكد من شيءٍ، (بديع المزين) معلومٌ للجميع، وليس بينهم من لم يرَ عضوه لمرةٍ على الأقل، كان ثرثارًا وجريئًا ومصابًا بمرض السكري، يبول في الساعة مرتين تقريبًا، يبدأ الحديث عن النساء، يعايرونه بمرضِه وأثره على عضوه، فيكشفه لهم كي يضحكَ الجميع، رقد عامين فقط، هذا غير كافٍ للنسيان أبدًا، فلماذا فعلوها؟ شعروا بالانقياد لمجهول.

تحول الشعور لدى أغلبهم من فضول المعرفة إلى الخوف منها، لقد تغيروا بدرجةٍ ما، إنهم يتركون نساءهم في حضرة عضوٍ شاذ، عضو بسنتيمترات إضافية، لطالما اعتقدوا في رجولتهم، والآن يفقدون السيطرة على نسائهم بحجة أنه لا أحد يمنع امرأته بحجة أنهم يريدون له بعض البقاء الإضافي، تلفتوا ولم يجدوا لنسائهم رائحةً في المسير إلى المدافن، فعلموا أن شيئًا ما يفصلهم إلى نصفين، لحظتها بدأ التفكير في الأرض كمقابلٍ للخلاص.

صاح (عبده الرحال) في الرجال بعد أن استودعوا جثة (بديع المزين) قبره، كان قد حبسَ زوجته بالدار، وأعتقد أنه الوحيد الذي لم يشعر فعليًا بأية صلةٍ بينه والنصف، عمومًا كان عدم الانتماء صفةً مميّزةً لكل عائلة الرحالين:

– أين ذهبت رجولتكم أيها الناس؟! ألا تستحون؟

(واجههم بالتحولات الجارية دون أدنى تمهيدٍ، وغياب التمهيد لا بد وأن يُحدثَ صدمةً بالغة، خصوصًا إذا كانت تمس حياءهم وذكورتهم، هو الوحيد بينهم الذي يليق به السؤال لأنه لم يحضر اللحظة الأولى،

فاتته ذروة السحر.

كان سؤاله معبرًا تمامًا عن حالة السقوط الجمعي، انتهاك حرمة ميتٍ، وانجذاب النساء لمسخ، هم يشعرون بذلك، ويرفضون الاعتراف به على المشاع لأنه محرَّم في عرفهم، ستكون أشبه بفضيحة وليس اعترافًا).

رغم أن أولاهم بالردِّ وقتها هو (سعد الجزار)، فهو من يخسر لحمه، وزوجته، وهو أول من كشف وهتك، لكن الكلمات خرجت من فم (رضا الخشاب) الذي جادل زوجته (نجية)، ولم تستجب له رغم عنفه المعلوم، ظلت تنعق في حجرتها، كاد صوتُها ينقطع وكاد رأسُه ينشق، فارَ عندما تذكر ليلةَ الأمس معها، صرخ فيه: «**ماذا تقول يا زوج (ناعسة)؟ أمسك زوجتك ثم تكلم**».

يتغير الزمن بتغير الأحداث، يسرع ويبطئ على راحته، عند تلك اللحظة توقف تمامًا لأنها كانت قاتمةً، وموحية بمقدار العناء المحتمل.

***

ثمة فأرٌ كبير، من ذلك النوع الذي يعيش في الغيطان، وقفَ (محمد) الابن يتأمله من الجهة المقابلة للساحة أمام الدار، عيناه المظلمتان جدًّا، فمه الذي لا يتوقفُ عن قرض الهواء في توتر، بدا عليه أنه ضلَّ طريقه إلى الغيط فانزوى في أحد الأركان، ليس من المألوف أبدًا عبور الفئران إلى الناحية الأخرى من الأرض، الحاجةُ هي التي تحدد المسافات، وقد قطع الفأر مسافةً أكبر من حاجته، لا أحد يمنع حبوب الأرض عنهم فلزموا مساحتهم، كان منتظرًا خلوَّ الساحة من العابرين، كل العابرين،

نساءٌ على مسافات متساوية يحملن الثلج، وكلما أنهت واحدةٌ المسافة ظهرت أخرى، قدَّمَ وأخَّر أكثر من مرةٍ، في كل مرة يضحك الابن، خوف الضعفاء مضحكٌ جدًّا إذا ما كان الخوف خيارهم.

- لماذا عبرت إلى الجهة المقابلة؟

تساءل الابن، يبدو أن الفأر قد ملَّ الانتظار، فقرر الانطلاق دون مراعاةٍ لحساب المسافة ومشاعرِ الخوف بداخله، انطلق بسرعته القصوى، بالتأكيد لم يرَ الكلب الناعس الذي قرر فجأةً النهوض ليمط جسده (الأوكورديوني) في كسلٍ شديد، أعتقد أن الكلب لم يعرف طبيعة الشيء الذي انطلق نحوه، كذا الفأر لم يتخيلْ أن تلك الكومة الأقرب إلى البُنية في الجانب الآخر بها حياة، أضاف نباح الكلب المذعور رعبًا مضاعفًا للفأر، غيَّر الخوف مساره ودخل دار (رضا الخشاب)، كانت المسافة كافيةً لتغيير المسار مراتٍ ومرات، كان الغيط واضحًا جدًّا، والنهار موجود، تجاهل كل ذلك واستمر في عماه.

لقد اختار الأسوأ على الإطلاق، حين أُغلقَ الباب حزن (محمد) الابن كثيرًا، لو أن الفئران الرمادية تثق في البشر لتولى أمره بنفسه وحمله إلى البر الآمن، لكنه الخوف الثقيل.

سمع صوت ضربات متتالية، أغمض عينيه متألمًا للضعيف المذعور.

- لماذا أيها الفأر المسكين؟!

***

-7-

كانت الأحداث أسرعَ من قدرة أهل النجع على الاستيعاب، فدهستهم تمامًا كما دهست الحمير المذعورةُ الجد الأكبر (محمد القالع)، بالفعل كانت مذعورةً حد الهياج والعمى، الشكل الذي تهشمت به أضلع الجد دلَّت على ذلك.

شبَّت النيران في حظيرته الملاصقة لداره فجأةً، ويبدو أن الوقت كان متأخرًا، لأنه لم يعرف بأمرها إلا من حرارتها، كان عددُ البيوت قليلًا، المسافات بينها كافيةٌ لحفظ الأسرار وتمكين اللهب، كان الناس ينامون بعمق.

الوقت أبطأ من الآن، والنار بنفس سرعتها، عرّى نصف جسده العلوي حين قرر اقتحام الحظيرة إنقاذًا لبهائمه، كانت مهنته الزراعة، وقد توارثها الأحفاد بعده، المزارعُ يعتبر بهائمه من أهل بيته، وتستحق المخاطرةَ لأجلها.

لكن بأية حالٍ كانت النيران أسرع منه، أحرقت مرابطَ الحمير قبل لحمهم وقبل غيرهم، ثلاثة حمير انطلقوا مذعورين وملتهبي الظهور، كان مشهدًا يونانيًّا بحق، صاروا أسرع من طبيعتهم، ولأنهم أسرع لم يستطع (محمد القالع) الجد تجنبَ طريقهم.

دهسةٌ من حافر أحدهم على جانب الصدر الأيمن، ودهسةٌ من حافر آخرَ على جانب الصدر الأيسر، تكسرت أربعة أضلعٍ على الأقل من كل جانب.

أما الدهسة الثالثة فكانت مركبةً جدًّا، دهس الثالث خصيتيه أولا، ثم شبك الحافر في حافة سرواله، ظنَّ الحمار أن شيئًا يقيد قدمه، يمنعه الهرب وقد كان بحاجةٍ شديدة للركض، الركض إلى زوال الألم، جرجر جسد (محمد القالع) الجد بشكلٍ عشوائي ليزيد التفاف السروال حول حافره، ويزيد التعلق، الذعر يجعل الحمارَ يقفز إلى السماء، تستطيعون توقع مُستقرِّ هبوطه، هرس خصيتيه حتى انفجرتا، وربما تحطمَ حوضه في قفزاتٍ شنيعة إلى أن مزعَ السروال، وأفلتَ مخلفًا وراءه جسدًا مهروسًا، انتقمت منه الحمير لسبب وجيه جدًّا أعرفه، ولسبب آخرَ يتعلق بخيالات أهل النجع بدا وجيهًا أيضًا.

منظر الدم الطافح من فمه كان دليلًا على اختراق أحد الضلوع أو يزيد للرئة وانفجار كيسها الرقيق، لكنهم أغلقوا فمه، لثموه اعتقادًا منهم في إصابةِ فمه، تجاوزوا المعجنةَ السفلية لقدسية المكان، وبالطبع لم يتوقفوا عن اجترار الحكاية والمنظر فيما بينهم.

بالفعل تسارعت الأحداث بدرجةٍ غير معقولة، خدعهم الزمن، تأكد (محمد القالع) الأب أن دهسَه قد اقترب بعد أن زلف لسان (رضا الخشاب) بجملته، لم يستطعْ تفسيرها تحديدًا، هل يعرف سرَّه الذي مضى عليه سنوات؟ أم أنه أطلقها في الهواء كعادةِ ناطقها؟ العلاقة بينه وبين زوج أخته باردةٌ جدًّا، المسافة بين الطبعين شاسعةٌ، لذا لم يقم أبدًا بينهما حوارٌ طويل، ولا يُعتقَدُ أن أحدهما يهتم لوجود الآخر، الحدث قديم، فلماذا الآن تحديدًا؟

حين دخلت (أمينة) الدار استعاد غضبه، منحَها نظرةً حارقة، أما وعيها المسلوب، وجلبابها المبتل فجعلا أثر الحرق لا يُذكر، افتقدت

ملامحها للحضور في مواجهته.

- **ابنتكِ تموت جوعًا.**

قالها لزوجته، ولم يعجبه الردُّ مطلقًا.

كانت الشمس أقربَ إلى المغيب، وهو وقت عودة (محمد) الابن إلى الدار عادةً، وجدَ أمه تبكي وهي ترضعُ أخته، لم يكن قد تعلَّم القسوة بعد، رغم ذلك تجاهل دمعَها، بل وفرح جدًّا عندما رأى الطعام الغائب منذ فترةٍ؛ تكفي للجوع.

أكلَ حتى اكتفى، واستعاد طبيعته.

لم يكن التوقيت معتادًا حين سار إلى جوار أبيه، ربما كان هروبًا من عتمة الدار وكآبتها، وربما طلبًا لهواء جديد.

ظل السير ميتًا حتى تكلم الابن: «**قالت أمي إنك ضربتها**».

(لا يعرف المرء إلا ما قد رآه، وقد غاب الابن عن المشهد الذي أسرَّت به الأم له منذ قليلٍ، يعرف أن أباه لا يضحك كثيرًا كباقي أهل النجع، لا يتحدث كثيرًا على عكسهم، رآه بطبيعةٍ لا تشبه الباقين، أطول وأضخم، ربما وأقوى، لطالما رآه رجلًا تمنى أن يصير إليه في يوم ما، رغم ذلك كانت صفعاته دائمًا أرحمَ من البكاء.

وقار أبيه يشبه لطمةً واحدةً عند الغضب تكفي للتعبير، وليست القسوة).

- **هل استخدمت العصا؟**

تساءل الابن في براءة.

ملأت (ناعسة) رأسه تمامًا، لديه تساؤلاتٌ وظنون تحتاج إجاباتٍ أهم من سؤال ابنه، مزيجُ الشك المبهم والخوف، انتظارُ القادم غير المعلوم، لن يفهمَ ابنه دلالة الصورة التي شفها وجه أمه عند الأرض، الصورة التي يخشاها ويحبها، لقد صنعت ملامحُها تلك خرقًا بقلبه، مر منه انجذابها للنصف كالأخريات، ليست اللطمةُ سببَ البكاء، ليست هي أبدًا.

كان (محمد) الأب غاضبًا وخائفًا فلم يجبه، بل زاد المسافةَ بين قدميه، وكأنه تذكر السببَ الحقيقي لتجواله في ذلك الوقت.

زاد الابن سرعة مشيته إلى حدود الجري، استعاد مشهدَ العودة السابقة بعد رؤية النصف: «**يا إلهي، هل هو النصف أيضًا؟**»

كان سؤال الابن سريًّا تلك المرة، بدأ يستشعر بشاعة ما اكتشفه، لقد تغير والده منذ أشار بإصبعه في نهاية الأرض المنزرعة، ويبدو أن النصف لن يرحل في هدوء، أراد صادقًا أن يتأسف لوالده، ولم يقدر على مقاطعة شروده الظاهر.

مرا ببيوت القرية، وكلمتهم البيوت، قلَّ عدد حاملات الثلج بدرجةٍ كبيرة، قلَّتْ جاذبيةُ العضو بعد ثلاثة أيامٍ فقط، ربما اكتشفن حقيقة موته، وبدأ بعض الرجال يمنعون نساءَهم بالقوة، لمحَ أخته (نجية) بينهن إلا أنه تجاهلها، ما به أولى به، خفتَ صوت الرضع الجائعين قليلًا، بعض المناوشات والجدل لم تحفظه الجدرانُ الطينية، وأكثر الشجار كان أقوى من الجدر، حالةُ الغضب المكبوت خيمت على البيوت

الصامتة إلى أن وصلا قرب دار (عبده الرحال).

استعاد (محمد) الأب سيره الأول الهادئ، كان البيتَ الوحيدَ الذي يخيفه وقتها، والوحيدَ الذي أراد معرفةَ ما يدور بداخله، سكنه الخوف، لم تتكلم تلك الدار بالذات، ما يعني أن الحريقَ لم يكن قد بدأ.

***

-8-

عندما لم يجد (عبده الرحال) تفسيرًا لجملة (رضا الخشاب)، والتي كررها مرةً بنظرته في الاجتماع الأول، ومرةً بلهجة محتقرة، استعجل الشمس، أنكرت (ناعسة) احتمالية وجود أي تفسيرٍ عندها، وكان يعرف ملامح خوفها، خاصةً حين يرتعد جسدها، أخذ يدق البوابة الخشبية الضخمة لدار الحاج (عوض الصباغ) بقبضتيه.

فُتحَ بابه مذعورًا ومجهدًا، خاصمه النوم كبقية رجال النجع، وتضاعف ذعره مع سؤال (عبده الرحال).

- ما معنى كلام (رضا الخشاب)؟

عاش واثقًا طيلة عمره من فحولته، تلك التي يجربها ثلاثة أيامٍ كل شهر، أخبرته (ناعسة) أنه أقوى ذكرٍ يمكن لأنثى أن تقعَ تحته، هذا يعني أنها تحبه، وأنها مكتفيةٌ به تمامًا وإن كانوا ثلاثةً فقط بالشهر، هذا كلامها له، لم يشعر أبدًا بخفوت الشوق عند اللقاء، بل كانت تغنج وتلهث وتصرخ عند الشبق، إذًا لا بد وأن الجملة لا تتعلق بالجنس، لكن لماذا لقَّبه بزوجها؟ ولماذا منعوه من الاستدراك رغم غياب النساء عن المشهد، لقد رأى في عيونهم نظرةَ شفقةٍ واحتقار، لماذا الشفقة؟ ولمَ الاحتقار؟

تبدلت ملامحه تحت تأثير الغضب والثورة، حوَّلا سؤاله إلى نوع من الاتهام.

- أنت تخفي شيئًا.

مجرد حالةِ التردد التي سيطرت على وجه الحاج (عوض الصباغ) أشعلت روحه، السؤال لا يبدو صعبًا، أي كلماتٍ ولو ساذجة أفضل من الصمت في مواجهته، إلا إذا كان يشيرُ إلى ما يخشاه.

لم ينتظر الإجابة، وانطلق مهرولًا إلى دار (رضا الخشاب).

– سأعرف كل شيء بطريقتي، ولو قتلته.

قالها وقد أضمر شرًّا حقيقيًّا، حين رآه (محمد) الأب علمَ أن القيامة قد بدأت، وأنه غير مغفور له.

اقتحمَ دار (رضا الخشاب) كحمار مذعورٍ وملتهب، قبل أن يفكر (محمد) الأب في اللحاق به كان قد شجَّ رأس الرجل بقطعةٍ خشبية حادة الأجناب قابلها أمام الباب، وكأن (رضا الخشاب) تركها ليسيِّر القدر، في هذه الحالة تحديدًا لن يختلف أثر اللسانِ عن أثر اليد، كلاهما كان يؤدي إلى نفس النتيجة، وهي شج رأس (رضا الخشاب).

أصدر (رضا الخشاب) خوارَ ثور ذبيح لم يستسلمْ بعد للموت: **«تضربني على غفلة؟ اضرب زوجتك الأول يا عرص».**

تسمرَ (عبده الرحال) ليس بفعل اللفظة، بل لإصرارِه العجيب على تأكيد ظنونه القاتمة، الأمر لا يشبه التخييل أو الكذب، إنه يدافعُ عن اتهامه حدَّ الموت، ضربةٌ أخرى كانت لتقتله لكنه لا يجيدُ القتل، لقد خانته زوجته، هذا واضح جدًّا، ألقى قطعةَ الخشب من يده واستدار، خطواته إلى داره لم تحمل خيرًا أبدًا، بينما استمر (رضا الخشاب) في رجم ظهره بكلماته الوقحة، جميعهم خافوا اعتراض طريقه ونظرة عينيه، كان يحرث الأرض مشيًا كما لو أن أطنانًا من الشقاء فوق كتفيه

حتى لتظنَّ أنه سيدخل داره من تحت أرضها لا من الباب.

(لطالما حملَ (محمد) الأب عار خيانته لرجل، وأعتقد أن السبب في عدم التوافق بينهما هو ذلك الإحساس من جانبه بالخيانة، ولو لمرتين فقط منذ زمنٍ طويل، لم يكن يحب مجردَ النظر إليه، لذا برغم وجود (محمد) الأب في المشهد القادم كرجلٍ وحيد لم يتدخل أبدًا).

تجمعت النساء على صوت صراخ (ناعسة)، التي لم تجدْ ما تقوله في حضرة ملامح زوجها المحتقنة، أحطن بالدار وما جرؤت إحداهن على الاقتراب، فقط تبادلن الصراخَ معها دون ألمٍ حقيقيٍّ وتركن كل العذاب لها.

كان صوت تكسير عظامها مسموعًا للواقفات وسباب زوجها الغليظ يملأ المكان:

- **من هو؟ قولي من هو يا ابنة العاهرة؟**

خلا محيط الدار من أي رجلٍ، تساءلت النساء عن واحدٍ فقط يخلصها من الموت المحتوم، أين اختفت مروءة الرجال؟ ولماذا يحدث كل ما يحدث؟

لا بد وأنهم يسمعون صراخَ (ناعسة)، ظهر الشقُّ الذي صنعه نصف الإنسان ذاك، رجالٌ فقط عند الدفن ونساءٌ فقط عند الصراخ.

بعدها خرج عليهن (عبده الرحال) مغتسلًا بعرقه كأنما حمل معهن الثلج لليلة كاملة، خفتَ صوت (ناعسة)، كان صوته يرتعد بقسوةٍ كجسده وهو يصيح: «**أين الرجال؟**»

أشارت آخر المنضمات للجمع نحو دار الحاج (عوض الصباغ) في ذعرٍ واضح.

انفتح الباب أمام النسوة بمغادرته، كان صوت الأنين المستمر ينبئ أن روحًا متبقيةً بجسد (ناعسة)، وأنه لم يقتلها تمامًا.

– لن أخرج من هنا حتى أعرف الحقيقة، من الذي فعلها؟

قالها (عبده الرحال) لرجال القرية المجتمعين منذ بدأ معركته، قالها بأنفاسٍ متهدجة وأعصاب أضعفَ من سيقان النباتات الجافة، كان بالفعل قد فقد كل طاقته، كمن يواجه بردَ الشتاء دون رداءٍ يستره، عندما وجد كلَّ العيون تسقط في الأرض لم يتحمل شتاءهم: «**سأقتلكم لو لم... أقسم أنني...**».

لم يكمل جملته المهدِّدة، فقد سيطرته كاملةً وسقط مغشيًّا عليه.

خابت كل محاولات الإفاقة، يبدو أنه كان في أمس الحاجة لتلك الإغماءة الطويلة راح فيها فترةً منحتهم وقتًا كافيًا للتفكير، ومنحت (هاشم المجبراتي) وقتًا معقولًا لتثبيت ذراعي (ناعسة) المكسورين، كان هناك دمٌ خفيف ينزف من فمها ولا يريد أن يتوقف، ربما انكسر أحد أضلاعها وآذى الرئة، اعتقدَ أن فمها قد أُصِيب والفم لا يصلح له التجبير، في الواقع لا يصلح معه غير طبيبٍ حقيقي، أتم عمله وتجاهل أمر الفم رغم أنه خطرها الحقيقي.

– من منكم طال (ناعسة)؟

سألهم الحاج (عوض الصباغ) بجدية تخفي وراءَها اعترافًا، حاول

الجميع الإنكارَ بالطبع، لولا أن تابع: «**لم يعد هناك أي مبررٍ للكذب، ستقول هي كلَّ شيء حين تفيق، سيجبرها زوجها على النطق**».

تأمل وجوهَهم المنكسرة في ذهول: «**يا إلهي، هذا يعني...**»

قاطعه (رضا الخشاب) الذي دخل عليهم بصحبة (محمد) الأب، وقد ضمَّد جرحه برباطٍ عشوائي جعل منه مسخرةً، ولم يكن الوقت يسمح بها: «**كسرَرأسي زوج (ناعسة)**».

قالها منتظرًا أن تثور حميتهم لأجله، قابلته عيونُهم المشمئزة، فتخلى تحت تهديد نظراتِهم عن الأمل في تعاطفِهم مع حاله، حاولَ الجلوسَ بينهم فعاجله الحاج (عوض الصباغ):

- **كله بسببك يا حمار.**

لم يكمل (رضا الخشاب) جلستَه لينتصب من جديد قائلًا: «**أهان الرجال يا حاج (عوض)**».

- **وهل أنت محسوب على الرجال؟**

(ويبدو أن هذه هي المنطقة شديدةُ الحساسية عند أمثال (رضا الخشاب)، تلك التي تقيس الرجولة بالقدرة الجنسية وحدَها، شعر أنه بخصيتين عاريتين، وقد ضربه الحاج (عوض الصباغ) فيهما بقسوةٍ، كان يفتقد الكثير من مزايا الآخرين، جلفٌ منفلت اللسان، ويظهر على ملامحه البلاهة لتزيده قبحًا، فكان من المنطقيِ أن يثور للشيء الوحيدِ الذي يُشعره بذاته).

- **لي عيال يا (صباغ).**

قالها متحديًا في إشارةٍ واضحة إلى النقص المعلوم عند كبيرهم، فزعَ الحاج (عوض الصباغ) من مكانه، وكانت مرتُه الأولى التي يصفعُ فيها أحد رجال النجع على الإطلاق.

- **تضربني؟!**

تمادى في تهوره، وأفلتَ حبل لسانه على إطلاقه: «**ذهبتُ إلى دارها مرات، وجاءت إلى غيري مراتٍ ومرات يا حاج، هل كان يُقرَأ عليها القرآن؟ هل تظنونني أهبلًا؟ تابعتها في كل مرةٍ دخلت إلى دار أحدكم، أو دخل أحدكم دارها**».

وضعَ (سعد الجزار) أقربهم إليه كفهُ على فيه، جرجروه إلى الخارج عنوةً، وقد صارت فضيحةً بينهم: «**لولا أنك الكبير**».

- **كلكم زناة، كلكم، و أنتم تعرفون.**

جحظت العيون لهول الاتهام، وجحظت أكثرَ حين انهار الكبير في مكانه، بدت التهمةُ حقيقيةً، وبالفعل أغلبهم متورطٌ معها إن لم يكونوا جميعًا.

دار (محمد) الأب بعينيه في وجوههم لا يخفي ذهولَه، لم تبدُ له (ناعسة) مثل الغانيات، هي مجردُ عاشقةٍ خاطئة، لم يلتفتْ قبلها إلى البداية، إن كانت الشرارة قد بدأت من ناحيتها أو من ناحيته هو، كانت نارًا تستعرُ بجوفه، نارًا من النوع الذي يذيب الصدر والأضلع، كان خوفه يتلخص في أن المرأةَ لن تحفظَ سرًّا مهما عشقت أو أبدت ذلك، منذ أغوته وهو ينتظر اللحظةَ، ويبدو أنه لم يكن الوحيد المنتظِر، لأول مرة يشعر أنه يشبههم، يشبههم جدًّا.

التفت إلى جسدِ (عبده الرحال) الممدَّد أمامه، اقتربَ منه أكثرَ، ونظرَ إلى وجهِه مباشرةً، أراد لحظتَها لو أنه سأل (ناعسة): «**لماذا كل هؤلاء؟**»

لازَم (سعد الجزار) صاحبه بالخارج محاولًا منعه من نثر كلماته الفاضحةِ في الطرقات، كان أكثرَ ما يخشاه مثلَ الجميع أن يتسربَ الخبر إلى إحدى النساء، لكنهنَّ لزمن دار (ناعسة) القريبة جدًّا من الموت لتضيع همهماته في الفراغ.

***

-9-

وسط كلِّ ذلك الهرج كانت (ليلى) -الصغيرة دائمًا- تحيا خلودها الدائم، أو الاختياري لا أحدَ يعلم، قالوا إن الشمسَ قد تحرقها، قالوا هذا دائمًا، حتى من قبلِ ولادتهم، لذا تقبلوا الواقعَ منذ وقتٍ بعيد، يمكن القولُ إنها لم تغادرِ الظل.

هي أقدمُ من تاريخهم البسيط، ولا يستطيعُ واحدٌ تحديدَ لحظة الخلق الأولى، قال أولُهم أنه وجد بيتًا صغيرًا منعزلًا فاستقر إلى جواره، ومن هناك بدأ وجودهم.

صحيحٌ أنها لم تخرج من البيت أبدًا، لكنهم يعرفون الكثيرَ عن أحوالها، ويحتاجونها بينهم عند غيابِ أي بديلٍ، تنامت دارها بنمو النجع ذاته، كل من يبني يضيف إلى دارها شيئًا حتى صارت أميزَ من دار أي كبير، ذلك رغم زهدها في البراح.

(الصغيرة دائمًا) ليست صفةً بل حقيقةً ثابتة، توقف جسدها عند طور الثانية عشرة تقريبًا، أما السنوات فلم تتوقف، ظنوها نجت من الموتِ إلى الأبد.

(أعجب الأشياء تصير عاديةً مع الزمن، والزمن كان كريمًا معها للغاية، بالطبع تساءلوا وتساءلوا، غابتِ الإجابة فتوقفوا عن السؤال وتقبلوا الواقع، لا يمكن التأكيد على أن جيلًا ما قد حبسَها في دارها، حتى لا تصير مزارًا، ويزيد العددُ إلى درجة الشيوع، أحبوا وحدتهم جدًّا واكتفوا، وربما كانت مثلَهم تحب وحدتَها وتكتفي بها... وقد يكون

احتياجهم لها وخوفهم من فقدها أو حتى حبها لهم، كل التفسيرات لا تهم).

لقد كان لهم بها حاجةٌ كبيرة، مع المرض العضال حين لا يُرجى شفاءٌ يحملون طريحهم إليها، يمددونه أمامها، لم تكلمهم أبدًا رغم أنهم سمعوا صوتَ وشوشتها للكلاب، الكلاب فقط ولا شيء آخر، وشوشاتٌ فقط، لذا لم يقدرْ واحدٌ أن ينسبَ لها جملةً مفهومة، حين تضع كفها على مكان الداء تبدأ أعراض النهاية، فهي إما تبتسم إيذانًا بشفائه، أو تبكي بشكلٍ هستيري وتتعلق بالجثة كأنما تودعُها، أو تريد الرحيلَ معها كطبيعة من ملَّ الخلود، في كل مرةٍ تصرخ يخلصون الجسد بعد عناء، كانت المسافةُ بين نبوءتها وتحقُق الموت قصيرةً دائمًا، فتنامى إيمانهم بها لدرجة اليقين.

موضع الداء كانت له قصةٌ ظريفة، بعد عودة (هاشم المجبراتي) من المستشفى المركزي -كحلٍّ أخير لعلاج الضعف الجنسي الذي أصابه منذ حادثة الشرطة- ذهب إلى دار (ليلى) -الصغيرة دائمًا- خلسةً، وضعت يدها على مكان دائه أو عرض هو المكان عليها، ذلك لا يهم، تشبثت به وبدأت الصراخَ، تجمعَ أهل النجع وخلصوا عضوه من يدها، كان الرجل يصرخُ كجديٍ تم خصاؤه، مازالوا يذكرون الموقف ويتندرون فيما بينهم عليه.

كانت خيارًا اضطراريًا بالطبع، فنبوءةُ الشفاء تحمل مقابلَها نبوءة الموت وهي لا تخطئ أبدًا، التطرف البالغ في النتيجة جعل استخدامَها أشبه بالمقامرة، وقد قامروا معها على مدى طويلٍ، تكون الخيار الأخير بقدر أنانيتهم ورغبتهم في استمرار الألم.

لا شيء مرتبٌ بالنسبة للصغيرة دائمًا، لا أحد مسؤولٌ عما يخصها، شعورهم بوجودها كان كافيًا لإطعامها بدون التزام، من تمر بخاطرها قد تحمل لها الطعام، وكان (محمد) الأب من بين كل الرجال، يحمل الطعام إليها كثيرًا، الغريب أنهم لم يجدوا عندها أبدًا بقايا طعام، فسروا ذلك بصداقتها للكلاب، والكلاب لا تكفُّ عن الأكل.

(ليلى) –الصغيرة دائمًا– النظيفة دائمًا، الوحيدة دائمًا، والصامتة دائمًا لم تشعر بينهم أبدًا بالجوع، غالبًا ما يتذكرها واحدٌ حين تغيب عن بال الجميع.

كانت حقيقيةً وضد كلِّ شيءٍ، بقدر ما آمنوا بها حفظوا سرَّ وجودها بينهم، أقسموا جيلًا بعد جيل ألا يذكروا اسمها أمام غريب، وقت لاحت بخاطر (محمد القالع) الأب، ارتعدت فرائصه، هي شفاء ونهاية، كان الرجلَ الوحيد الذي يداوم على إطعامها وكثيرات، فحملَ الطعام إليها من داره كي لا تجوع، لربما تكون رحيمةً بالنجع حين لا يجدوا لها بديلًا.

***

-10-

(ويبدو أن الجسد يبلى أسرعَ عند النسيان)، فقد الثلج تماسكه في الفترة البسيطة التي نسوا فيها أمر العناية بالنصف، فترة تُقدَّر بالساعات فقط كانت كافيةً ليفقد جزءًا من بياضه ولمعته، تحول جلده إلى نفس ملمس مناديل المراحيض، كان واضحًا أنه سيصمد أطول من العادة حتى يتشققَ اللحم.

لملم (عبده الرحال) أهم أشيائِه بينما (ناعسة) فاقدةٌ لوعيها، جبر الكسر يؤلم أضعاف الكسر نفسه، حين أنهى (هاشم المجبراتي) مهمتَه كانت قد غابت تمامًا.

بالطبع وجود (عبده الرحال) بالمنزل ينفي وجود النساء، وقفَ أمام سريرها، مسحَ جسدَها بنظرةٍ واحدة حمَّلها كل الأسى: «**أعلم أنه ينبغي عليَّ قتلكِ، أنت تستحقين القتلَ، وتعلمين أني لن أفعلَها، أنا أضعف من ذلك بكثيرٍ، لن أقدر، يا رب لا تتركها حيةً، أنتِ طالق، طالق، طالق**».

قال كلماته بصيغة الفراق الأخير والهجران المطلَق.

حملَ الأشياء إلى سيارته الكبيرة، صعد إلى صندوقها الخلفي، أخذ يرمي ببضاعةِ الناس، والتي لم يلقوا لها بالًا، بعثرها بشكلٍ أفسد أكثر من نصفِها، شاي، سكر، بن، حلوى مسكرة، بعض الدواء، والكثير من الوقود السائل الذي يشغل الثلاجةَ الوحيدة، وأشياء أخرى كانت مغلفةً بقسوة حد النجاة.

تجمعت الكلاب حول البضائع، أفسدوا قدر ما استطاعوا، كان يشعر أن رائحةَ هواء النجع تتغير، لأنه الوحيد الذي يغيب ويرجع، شعرَ بقرفٍ أجبره على التقيؤ، لكن الأمر لم يكنْ بمثل تلك الصعوبة على بقية أهل النجع.

بعد أن تخلص من معدته، لفَّ شاله حول وجهه بما يشبه اللثامَ، قاد سيارته وأثار الغبار، آخرَ غبارٍ، واختفى إلى النهاية.

أفاقت (ناعسة) جزئيًّا على وجعها الرهيب، كانت النساءُ قد أحطن بها من جديد، شقت عينيها المتورمتين بصعوبةٍ بالغة.

– ألف سلامة يا (ناعسة).

قالتها إحداهن قبل أن تسأل هي عن زوجها (عبده الرحال) في وهنٍ شديد، لا يمكن لإحداهن تحديدُ هوية السؤال: هل هو احتياجٌ أم خوفٌ؟ تريده بالفعل أم تتقي شره؟

لطالما كانت (ناعسة) جريئةً على غير عادة النساء، والجرأة في النساء مذمومةٌ، لكن في حالتها كانت مفيدةً جدًّا، على الأقل إلى هذه اللحظة، كانت جرأتها تبرر مواقفَها مع الرجال، الجرأة غفرتْ لها كل ما هو دون ذلك، غفرت حديثَها الدائم عن فحولةِ زوجها، قدرته الجنسية التي لا تقدر واحدةٌ على مجاراتها، استخدامَها الدائم لألفاظٍ صريحة، وخادشة، هذا كله يدلل على عشقِها لرجلها، فلماذا حدث ما حدث؟

حين أخبروها برحيله استعادت غيبوبتَها، يبدو أنها أفاقت لمجرد أن تخبره بكل شيءٍ ثم ترحل، عن غيابِه الطويل الدائم، نارِه التي يأتيها بها، انكسارِها في كل مرةٍ تنطفئ قبلَه، والآهاتِ التي تتبع الخفوت، لم

يسمح لها ولو لمرةٍ واحدة أن تكسره، أن تطيِّب خاطره قائلةً: «**لا يهم غدًا ستكون أفضل**».

كان قويًّا لدرجة أنها لم ترَ دمعه ولا ضعفه، بحثتْ بين الرجال عمن تكسره، عن لحظاتِ ضعفهم، (محمد) الأب لم يضعفْ في المرتين، لفظته سريعًا أو لفظها هو، بدَّلته بآخرَ وآخرَ، لحظات ضعف الرجال مثَّلَتْ لها متعةً تفوق الشبق، ربما كان هذا السببَ الأوجهَ لتفسير طول علاقتها بالحاج (عوض الصباغ)، و(هاشم المجبراتي) مقارنةً بالآخرين، هما يشتركان في وفرة المال، والمالُ ليس له قيمةٌ حقيقية بالنجع.

كانت جامدة دائمًا، باردة دائمًا حتى وهي ترجو أحدَهم أن يكررها أكثر من مرةٍ في نفس اللقاء، وكان الرجال ينكسرون غالبًا بعد المرة الثانية بعد استنزاف طاقتهم بالكامل، عندها تبتسمُ وتشعر بالحياة، الوحيد الذي نجا منها هو (محمد) الأب لأنه لم يكررها أبدًا في لقاء واحدٍ، شعر في المرتين بالخيانة، فكان يلملم روحَهُ وينصرف قبل أن تبدأها معه، تركته لأنه غيرَ الجميع، وتركت فيه ما يمكن أن يذْكرها به طيلة عمره.

هذا لم يكن مبرِّرَها بل قصتها، إنها حالتها التي اكتسبتها بالبعد والبرد.

***

-11-

علا صوت صراخ (نجية) زوجة (رضا الخشاب) وأخت (محمد) الأب، تدق خشب نافذتها ربما بقبضتها، وربما بشيءٍ أشدَّ صلابة، حين سمعها أخوها فزَّ من مطرحه، اصطحبه ولده دون إرادةٍ منه، صراخ أخته المرتعب أولى بتجاهل كل الهامشيات، وجدا (رضا الخشاب) خارجًا من داره بنفس هيئته المزرية دائمًا، كان مضطربًا، مشطورًا، يتصبب عرقًا كريهًا، حين رأى (محمد) الأب عاجله بسؤالٍ غير مرحّب:

- ماذا تريد يا ابن القالع؟

قالها بنبرةٍ قاسية مملوءةٍ بالتحدي، لم تمنعْ قسوتها (محمد) الأب من استخدام سؤاله:

- ما لها (نجية) يا (رضا)؟

- زوجتي وأؤدبها، أم تريد صفعي أنت أيضًا، هيا حاول لأقطع رقبتك أمام ولدك، هيا.

كان حال (رضا الخشاب) مثيرًا للشفقة لا الخوف، وتعابيرُ وجهه خاصةً حين ترتجف شفته السفلية تفصحُ عن هشاشةٍ وصناعية ما يحاول إظهارَه، دقات (نجية) العنيفةِ على شباكها تعني أنها بخير على الأقل حتى لحظتها، إنها قادرة على التنفس بقوةٍ، فتجاهل (محمد) الأب عنفه الواضح، وتكرار السؤال نفسه.

- فضحت الجميع يا (رضا).

قالها برفق يشبهُ العتاب، لربما أحجم الثور عن العراك.

- **إنها الحقيقة يا ابن القالع، كلكم تعرفون هذا.**

أشار الأب إلى ابنه أن ينسحبَ من المشهد، فانطلق يبحثُ عن أقرانه، لم يعرف (محمد) الأب أي شيءٍ مما ادعى (رضا)، ويبدو أن نمطَه في الحياة قد أفقده الكثيرَ، جلسَ دون دعوةٍ على عتبة الدار بما يشبه انهيارًا مكتومًا، أصرَّ (رضا الخشاب) على جلافته واستمرَّ واقفًا، فشدَّه (محمد) الأب عنوةً من يده مجلسًا إياه.

خفتَ صوت (نجية) قليلًا، وبالتالي هدأ الكون من حولهما قليلًا، صار تبادل الكلمات ممكنًا.

باحَ (محمد) الأب بمكنون نفسِه، ذلك النصف الخبيث الذي علمَ من وقع النظرة الأولى أن خرابًا سوف يحلُّ بالنجع ولربما أطاح به، ثمة إحساسٌ مكتئب تلبَّسه حين غيَّرَ من وضعه، كيف أنه فكر جديًّا في قطع عضوه، أخبره أيضًا عن سرِّ انسحابه من بينهم عندما كشف كلٌّ منهم عورته أمام الآخرين، ذكَّره بذلك اليوم القديم، طفولتهم، وقت كانوا يلهون في الترعة المجازية تمامًا كما يفعل أبناؤهم الآن، وكان هو الوحيد الذي لم يزل مرتديًا سرواله، ربما أراد مخالفة جده الأكبر والتخلصَ من اللقب الذي ابتدعوه له: (القالع)، كيف تكالبوا عليه؟ وجردوه من السروال ليغدو مثل الجميع...

- **لم أشبهِ الجميع يومًا، وصدقني لن أشبههم.**

قالها (محمد) الأب وهو يعنيها، يصدقها، يبدو أنه من الذين يحملون الذكرى في صدورِهم، كان طبيعيًّا ألا يستوعب (رضا الخشاب)

المعنى الباطنَ لكلماته، أما العجيب أن ربتَ (رضا الخشاب) على ظهره مواسيًا، ما استفزَّ صاحبه ليبتسم:

– أكره أن يرى أحد عورتي يا (رضا)، ولا حتى زوجتي.

ضحك (رضا) في بلاهة قائلًا:

– إذًا، سيرونها غصبًا يا ابن (القالع).

كان هذا أكثرَ ما يخشاه (محمد) الأب بالفعل، يخشاه أكثر من همهمات (ناعسة) غير الواعية.

– نمت معها؟

كان سؤال (رضا الخشاب) يعني أنه لم يرَه، فهو لا يعرف التحايلَ، ولا يملك عقلًا له، صمتَ (محمد) الأب في مواجهةِ السؤال ليتابع (رضا الخشاب)...

– الوحيد الذي لم أرها تذهب إلى داره، (أمينة) لا تترك البيت.

ضحك وهو يقول ساخرًا:

– فوتَت (أمينة) عليك الكثير يا ابن (القالع).

أكمل (رضا الخشاب) وأخبره عن مصابِه في زوجته وأخت صاحبه، تلك المرأة الخنوعة المستكينة، كيف قاتلت لأجل الخروجِ من الدار، كيف انحسرَ اهتمام النساء بذلك النصف وبقيت هي على حالها...

– لم تكسر لي أمرًا من قبل.

قالها باندهاش محض، تلك المرأة بالذات أبعد ما تكون عن العناد، كانت أكثر النساء خجلًا وانصياعًا، لم تكن سمكة أبدًا، فلماذا نزلت إلى النهر؟!

- إنها مسحورةٌ، رأيت هذا في عينيها، لقد حبستها، اسمع، تدق الخشب كالمجنونة، ولا تسمع صريخَ العيال.

صوت الدق يخفت، ويبدو أنه لن يتوقفَ إلى النهاية، شعر (محمد) الأب أن الحديث مع زوج أخته ليس سيئًا على الإطلاق، وشعر (رضا الخشاب) أن الحديث ممكن.

- لماذا فضحتنا يا ابن (الخشاب)؟

كررها (محمد) الأب وملأها الأسى، كان سؤالًا مجردًا، لا ينتظر إجابةً له.

- لأني أحببتها يا ابن (القالع)، عشقتها رغم كل ما فعلته، مرةً وحيدة ثم تمنعت، رغم أنها ذهبت للخصيان عشرات المرات، مرةً وحيدة، لم أشبع.

كانت إجابته صاعقةً، لم ينتظر (محمد) الأب مثل هذه الإجابة المباشرة والصادمة مطلقًا، ملامحه المجردةُ لا تشبه جملتَه الأخيرة، جملةٌ بلهاء ومؤلمة، جرب (رضا الخشاب) وتكلم، العجيب أن الكلماتِ خرجت صادقةً، صادقة جدًّا.

***

-12-

بدأت رائحةٌ نتنة تفوح من النصف بعد اليوم الثالث، كان يذكِّرهم بوجوده تقريبًا، رائحةٌ تشبه الموت، لدرجة أن الحاج (عوض الصباغ) وأهل بيته لم يتحملوا البقاء في الدار، انتقلوا إلى دار (هاشم المجبراتي) مؤقتًا، هو وزوجته والخادمة التي تربتْ في دارهما منذ الصغر، لم تكن تظهرُ مطلقًا لدرجة أنها صارت منسيةً، ولولا أنهم انتقلوا ما تذكروها، بالفعل كانت منسيةً إلى الدرجة التي لا أملك معها أية معلومات عنها.

«**منك لله، شردتنا بين الناس**»... قالتها زوجته له ثائرةً، فيقسم ويؤكد لها أن الأمر لن يتجاوزَ يومًا آخر أو يومين، كل شيءٍ قد يصبح محتملًا بالاعتياد إلا تلك الرائحة.

كان عدد الموجودين بدأ يقل كثيرًا، الدار ليست دار الكبير وعليهم تقديرُ هذا، بدأ الخوف يتملك أكثرهم، ولا أعتقد أن أمر صفعِه لـ(رضا الخشاب) قد أثر في شيء.

- **أولاد الكلب، النساء ورطونا إلى الرقبة.**

قالها الحاج (عوض الصباغ) في وجود، (سعد الجزار)، (ومصطفى الأخنف)، وبالطبع صاحب الدار...

(فكرة الثلج نفسها شديدة الغباء، فقط لأنهم لم يفعلوها من قبل فبدت ذكيةً، لم يكن الأمر يستحق العناء، فليحترق نصف الإنسان من البداية ما دام كل من يعرفونهم بخير، لم ينقصْ منهم أحد، ويبدو أنه لا يوجد بينهم من يمتلك ربع الحجم ما ينفي العلاقة بينه وأحد الراحلين،

وبالتالي تكون قد انغلقت كل العيون أمام دفنِه، لقد مرروها تحت تأثير الدهشةِ والفضول، لن ينكر واحدٌ منهم أنه شعرَ بلذةٍ عجيبة حين قرروا الاحتفاظ به، لو دفنوه من البداية مضحين بالأرض لبقي عند الجميع سؤال بلا إجابة، هذا مؤلم حدَّ الصداع الأزلي، ولم يعرفوا أن الصداع رحيمٌ، رحيم جدًّا مقارنةً بما هو آت).

- نمت مع (ناعسة)؟

كان السؤال مرعبًا وبدون أية تورية حتى أن عيني (محمد) الأب برقتا مثل بومةٍ مذعورة.

هل تحدثت (ناعسة)؟ الأمر لم يعدْ يتعلق بشخصِه وحده كما أخبره زوج أخته، الكل مُدَان، لقد كانت عاهرةَ الجميع، إنها تحتَ تأثير الألم الصِرف، كلامها يحتمل كونه نوعًا من التخريف؟ لكن المهربَ غير مضمونٍ، لم يشعرْ قبل هذا السؤال برغبته في الاحتفاظ ببيته، إنه سيفكر ألف مرةٍ قبل هدمه إن مُنِح الخيار، سيحارب ولو بالكتمان أو الكذب إن لزم الأمر.

«**سمعت (رضا الخشاب)**»، كانت بالطبع تقصدُ ما أخبرها (محمد) ولدها به، قبل أن يأمره والده بالانضمامِ إلى الرفاق إضافةً لاستراقها السمع بعض الدقائق.

زاد الوضع سوءًا وتضاءلت فرصُ الهروب من الحقيقة، هو لم ينطقها حرفيًّا، لكنه صمتَ حين سأله (رضا الخشاب): «**نمت معها؟**»

حتى أن إنكاره بدا مضطربًا وغير مقنعٍ، لكنه لم يقلها، وربما لن يقولها أبدًا.

(أمينة) كانت ذكيةً فيما يخص زوجها، ذلك النوع من الزوجات اللاتي يقاومن فتورَ المشاعر الحتمي، كانت جيدةً بما يكفي للاستمرار، فلم تضغط بأكثر من سؤالٍ وحيد لا تستعجلُ إجابته.

– ستضيعنا العاهرة.

قالها في نفسه وهو يغادر كالمُنسحب، فقط لتبقى فرصةٌ من أي نوعٍ وأرادت (أمينة) منحَه إياها، سترضى ولو بالكذبِ عليها، أما هو فلم يكن مستعدًا بعدُ للكذب، سار بدون اتجاهٍ مقصود، ولم تتبعه.

– حتى (رضا الخشاب) يا (ناعسة)؟! ماذا أعجبكِ فيه؟ وماذا أعجبه فيكِ؟

(لم يكن قد أحبها بالشكل الذي لا يمكنُ بعدَه إيقافُ الألم، لقد جرَّب معها الخيانةَ أكثرَ من المتعة وقد كانت ممتعةً، مختلفة على الأقل، مرتان هما كلُّ شيءٍ غير كافيتين للملل، ولا للبحث عن واقعٍ مناسب، تقبَّل فكرةَ وجودها في ذاكرته كلحظةٍ أصابته بالمتعة كأنما ينزفها، وكلما نزفَها باتت قدرتُه على الاستمرار أضعفَ، أغمض عينيه أكثرَ من مرةٍ وقت جماع زوجته، تخيلها تعودُ دون سعيٍ منه، يعلم أن أشياءَ قد تغيرت بالزمن، العجيب أنه كان يستحضر ملامحَها مجردةً من أي تغيير، وبنفس اهتياج المشاعر البدائية، المسافات بين الذكرى والأخرى تعني أنه لم يعشقها بدرجة كافية، والمهم أنه لم يكرهها بدرجة كافية أيضًا).

– صار الهواء مقرفًا.

قالها وقت قررَ تغيير مسارِه والاتجاه إلى دار الكبيرِ البديلة، لا بدَّ

من متابعةِ القادم، ولم يكنْ قد بدأ عزلته بعد.

***

-13-

وقت اقترب (محمد) الأب من دار (هاشم المجبراتي) سمع صوت امرأةٍ تتقيأ في الدار المجاورة، دار النصف الآن في غيابِ صاحبها، تكاد تلفظ أمعاءَها مع القيء، لاقاه من بالدار من الرجال خارجها، يبدو أن الصوتَ قد أثار فضولَهم أيضًا، حين دخلوا ساحةَ الحاج (عوض الصباغ) وجدوا (نجية) أخت (محمد) الأب في حالة أشبهَ بالاختناق، بدا وجهُها مزرقًّا وعروق رقبتها أقرب للانفجار.

حتى وإن كانت الرائحةُ منتنةً لا يكون الموت اختناقًا هو الأثر الطبيعيُّ، كان موتها وشيكًا، ملامحها أبدت ذلك بوضوح، إذًا لا بد وأن سببًا إضافيًّا سيفسر ردةَ الفعل تلك.

حملها (محمد) الأب سريعًا بمعونة من (سعد الجزار) إلى الدار الأخرى، مدداها على أريكةٍ خشبية، أخذا يثيران الهواء حولها و(محمد) ينفخ في وجهها قدر استطاعتِه، قال (هاشم المجبراتي) متعجبًا: **«هذا غير طبيعي، الرائحة ليست بالدرجة التي تقتل!»**

- هذا لأنها حامل، أخبرَت زوجتي منذ أيام أنها تموت.

قالها (محمد) الأب وهو ميتٌ في جلده، بدأت مقاومَتها تهدأ، كانت الوحيدةَ من بين باقي النساء التي لم تزلْ تحملُ الثلج إلى النصف، الفعلة غير مبررةٍ، خصوصًا عند من يعرفونها جيدًا، إنها لم تتمردْ ولو لمرةٍ من قبل، بالتأكيد هي مسحورةٌ، ولكن لم يرها واحدٌ تدخل الأرض المحرمةَ، لم تذكر شيئًا عن أغنية تسكن رأسَها (كانت الأرض محرمةً

حسب معتقدهم لأن من دخلوها أصيبوا كلهم بالجنون، ولا شيءَ يفسر أسطورتهم سوى قبر واحدةٍ من الجيل الأول لم أمنحها اسمًا بعد).

أصابتها نوبةُ سعالٍ قاسية، أمسكت بطنها وأخذت تتلوى كأفعى تغير جلدها ما دعا الحاج (هاشم المجبراتي) إلى استدعاء نساء الدار، خافَ على ما ببطنها، والنساء أعلمُ بأمورهن، لكنه طمأنهم بحكم مكانته كطبيبٍ بدائي، حملها إلى الداخل، لحظات ليفاجئهم (رضا الخشاب) عند الباب، ودون أن يدخلَ نادى بأعلى صوته: «**قل لأختك إنها طالق يا ابن (القالع)**».

كان الألم ظاهرًا على هيئة (رضا الخشاب) رغم ذلك انسحبَ بهدوءٍ لا يناسب تهورَ الكلمات التي نطقَها، حاول (محمد) الأب مناداته بينما فقد الآخرُ أذنيه، لقد عصت (نجية) أمره، كسرت النافذة المتهالكة وقفزت كالمسحورة، بالطبع رجلٌ مثل (رضا الخشاب) لن يهتمَّ بتبريرات نفسية رغم أنه عجيب أيضًا كونه مرَّرَ دقاتها السابقة على النافذة، ساعتها لم يكن رأسُه قد شُجَّ بعد، هناك أشياءُ تتغير، وبسرعةٍ هائلة.

هناك نوعٌ من البشر يعيشون بين الناس كأطيافٍ خفيفة، (نجية) من هذا النوع، والذي يبدو متعادلًا تجاهَ كل شيءٍ، حين سألها أبوها «**هل توافقين على الزواج من ابن (الخشاب)**؟» لم تمتلك ردًّا، هي لا تأبه لكل ما يقولونَه عن (رضا الخشاب)، ولا حتى لما تراه فيه بحكم الجيرة لأنها لا تعرف ماهية الحبِّ والكراهية، عدم وضوح أمارات المحبة تجاه الأشياء عيبٌ خطير، لكن اختفاءَ أمارات الكراهية ميزةٌ عظيمة، واحدةٌ بواحدة تجعل النتيجةَ صفريةً وتخفيها.

وبرغم ذلك كانت قادرةً على الفرح والحزن -بكت حتى أحزنت

الجميع عندما مات زوجها- كان أخوها شبيهًا بها، ولا يمكن القول إنها تشبهه، هي أقربُ إلى صفات الجدِّ الأكبر الذي لم يحب واحدةً من زوجاته العشرةِ أو يكره، ولولا أن حبه لحمارته العرجاء كان واضحًا، لجزمنا أنها نسخةٌ منه، (نجية) طيفٌ حتى وسط حكايات النجع.

- إن ذلك النصفَ الخبيث يفسد كل شيءٍ، أفسدَ لحمي، و أفسد الزوجات، و أفسد هواءنا.

أصاب (سعد الجزار) في كل كلمةٍ نطقها، شعر الحاضرون بالخوف من وجوده، أغلبهم تنازل عن حقِّ تعريف القاتل وما يرتبطُ به من فضولٍ، فقدوا اهتمامهم بكل ما هو دونَ الخلاص، هذا لا يحتاج إلى النطقِ به.

نصفٌ مثل هذا لن يكون التخلصُ منه أمرًا هينًا، المقدمات تؤدي إلى الشكِّ في سهولة فعلها، رغم أن الحكاية تتلخص في حمله بعيدًا -وأقرب من لفت انتباه العالم- ثم دفنِه في أعمق حفرةٍ يصنعونها ولتحترق الأرض، التراب بالإنسان مقايضةٌ غير منطقية خاصةً إذا ما شعر الإنسان بتهديدٍ حقيقي.

كان ذلك الشعور قد تسللَ إلى أعماقهم منذ اليومِ الثاني للبداية، الأمر لن يكون سهلًا، وحين نؤمن بشيءٍ يتحقق، أو يحركنا الإيمانُ نحو تحقيقه دونَ وعيٍ سيفعلونها بالتأكيد، لكن هناك شيءٌ ناقص.

أفاقت (نجية) تقريبًا، هذا ما فسره الحاج (عوض الصباغ) من غمزةِ عين زوجته، فطمأن أخاها الذي كان قد شردَ بعيدًا عن حواراتهم منتظرًا فقط أن تفيق أخته.

استأذن (محمد) الأب مصطحبًا أخته ذات الملامح التائهة، أشفق على حالها فالتزمَ الصمت، وأشفق على جسدِها لكثرة العثراتِ فحملها على كتفه، سيضطرُّ للعودة إلى داره، على الأقل من أجلِ (نجية)، لن يجد مكانًا بها ليضعَ همه، همه من داره، وداره هي الهم.

***

-14-

كان كلبٌ يوشوش (ليلى) وتوشوشه، حين دخلت (أمينة) دارَها حاملةً صينية الطعام كالعادة، يدخل أيُّ شخصٍ فينصرف الكلب.

وضعت (أمينة) الطعام وجلسَت إلى جوارها، شخصت ببصرها عبر الباب المفتوح على الساحة

- مرعوبة يا (ليلى)، حين سمعت أبا (محمد) يعاتب (رضا الخشاب) خفت -ستفضحُنا جميعًا- تعني أن له نصيبًا من الفضيحة، كرَّرها وبعدد ما كررها خِفت، لم يجبني حين سألته، تركني وابتعد، أنت تعرفينه يا (ليلى) بالتأكيد، هو الرجل الوحيد الذي يأتيكِ بالطعام، أعتقد أنه لا يشبهُ الباقين، هو طيبٌ، لم يوجعني مرةً، حتى في ضربه، ابني (محمد) يضحك كثيرًا حين يضربه أبوه، يقول لي في كل مرةٍ، خفيفة، يضحك ليواري خجله قليلًا، ثم يبكي، يبكي من الخجل، ضرب (محمد) لا يؤلم يا (ليلى).

كانت (ليلى) -الصغيرة دائمًا- جامدةَ الملامح لا تقبل التقاءَ عينيها بعينٍ أخرى أبدًا حتى كلابها، نفور العينِ يخلق نوعًا من القطيعة، ولهذا السبب لم يُطِل أحدُهم عندها.

لكن (أمينة) كانت بحاجةٍ للبقاء قليلًا، كانت تعرف أن الكلام قيمته من صداه، و(ليلى) -الصغيرة دائمًا- ليست صدى لأي كلامٍ، إنها مثل اختراقٍ للغيب، حلٌّ لمسألةٍ شديدة التعقيد، كلهم يتجردون من

بقايا عقولهم عند عتبة الدار، ويستقبلون ابتساماتها، ودمعها بيقين.

فكرَت (أمينة): لكل شيءٍ بداية، فأين هي البداية؟

ودَّت لو عادت بالزمن لتعيدَ التدقيق في كل لحظةٍ مرت، وتعرف مصدر الشرارة الأولى، حياتهما كانت صافيةً حدَّ العادية إلى أن نطقَ جملته وكرَّرها، في أي لحظةٍ أخرى يمكن للمرأةِ أن تجترَّ الماضي بتفاصيله، إمكاناتها مبهرةٌ في ربط العلاقات إلا في لحظة مثل هذه، اضطرابٌ بالغٌ محيط وفرصة أخرى للبداية مستحيلةٌ.

دقائق معدودة في حضرة (ليلى) –الصغيرة دائما– هي وقتٌ طويل باتجاه القلق، وطبعًا باتجاه الخوف.

– إذًا، أراكِ بخير.

قالتها وهمَّت بالانصراف، شدتها (ليلى) بحركةٍ مفاجئة من ذراعها، ما أجبرها على الانحناء ناحيتَها، شلَّ الرعب قدرة (أمينة) على النطق عند التقاء الرأسين، وضعت كفَّها حول رأسها، أغمضت عينيها كالعادة، وشفتا (أمينة) ترجفان كنافذةٍ مفتوحة على الريح، ثوانٍ معدودة ثم فتحتهما، منحتها (ليلى) –الصغيرة دائمًا– ما يشبه الابتسامة الباهتة، ثم تركتها لتنسلَّ من بين كفيها في سهولةٍ غير معتادة.

خرجت (أمينة) إلى الساحة تتصيدُ أنفاسَها، تحب الصغيرة دائمًا وتخافها كما يفعل الجميع، فقط لأنها لا تخضعُ لقوانينهم، كانت المسافة كافيةً لتتساءل أثناء هرولتها إلى الدار، ماذا تعني (ليلى)؟

كانت ملامحها مشوشةً حين فعلت ما فعلته، صحيح أنها مالت

ناحية الابتسام، لكن عادة المواقف الحاسمةِ لا تعترف إلا بالأفعال القطعية.

أرادت (أمينة) ابتسامةً لا تشوبها شائبة رغم غياب دموع (ليلى).

وصلت دارَها، كانت الصغيرةُ تصرخ في غياب الأب وابنه، ولم تكن (نجية) بحالةٍ جيدة، كانت تضع كفيها على رأسها وتنظرُ في الأرض، حين رأتها (أمينة) تبادَرَ إلى ذهنها سؤالٌ أهم، لماذا وضعت (ليلى) –الصغيرة دائمًا– كفيها على رأسها؟ قلبها هو علتها الآن، فلماذا رأسُها تحديدًا؟

كان صداعًا قد بدأ يتسرب إلى جمجمتها، ويضغطُ على العظام بقسوةٍ، وقفت أمام المرآة تتأمل رأسَها، بدى لها أكبرَ من طبيعته.

***

–15–

«أظنه حان وقت (ليلى)، لربما»... همس بها (هاشم المجبراتي) في أذن الحاج (عوض الصباغ).

كان النهار لم يزل جديدًا والرجال مجتمعون في الدار البديلة، بالطبع قلَّ العدد عن ذي قبل لكنه لم يزلْ مقبولًا ليعبر عن الإجماع.

وكأن الاسم قد سقط من فم الحاج (عوض الصباغ) رغمًا عنه، قال شاردًا: **«(ليلى)؟»**

رنّ اسمها كجرس كنيسة، لطالما كانت (ليلى) –الصغيرة دائمًا– هي آخر خياراتهم، نهاية الطريق عند التيه، ارتسمت في أذهانهم كمسيح تجاهلوا وجوده بينهم وهو الخلاص، علموا ما كان ينقصهم.

(ربما هي الحالة الوحيدة التي لم تكن تحتمل التأجيل، لأنها لا تحمل مكسبًا وخسارة، إنهم يعرضون عليها ميتًا، ميتًا بالفعل، يبدو أنهم تعودوا على تأجيلها).

علمتنا الحياة أن كل شيءٍ يموت وحتى الأفكار، و(ليلى) –الصغيرة دائمًا– تلك التي تبدأ حكايتها قبل وجودهم لا تموت أو لم تمت، دائمًا ما أشفَق عليها (محمد) الأب ولم يستخدمها قط، كان يرى أن مجردَ البقاء عند نقطةٍ ثابتة هو نوع من العذاب الدائم، خصوصًا أنه لا يوجد واحد قد يعرف شيئًا عن نقطة الثبات تلك، لربما كانت أسوأ لحظة في تاريخها كله، لذا من الطبيعي ألا يتشارك (محمد) الأب مع أهل النجع في أي أمر يخص تلك الصغيرة دائمًا فانسحب من بينهم في هدوء.

أجمعوا على احتياجهم لـ(ليلى) –الصغيرة دائمًا– سرهم الأثير، كل ما تبقى أن يتخيروا اثنين لحمل النصف، في النهاية، وبعد كثيرٍ من الأعذار والاعتذار، تطوع (سعد الجزار) و(مصطفى الأخنف) لتحمُّل العبء والذي يتلخص في تحمل الرائحة المنتنة، حملاه فيما يشبه المحفة الخشبية، وسبقهما الجميع إلى دار الصغيرة دائمًا، النظيفة والمهندمة دائمًا، وضعاه أمامها مباشرةً ثم تراجعا لا إراديًّا إلى الحائط، قاوما التنفس بأكبر من طاقتيهما...

سرحت في الأعلى لدقائق كأنما تعاقبهم جميعًا بالرائحة، ولم يجرؤ واحد على استعجال الوقت إلى أن نزعت عينيها من السقف ومالت برأسها على النصف، مسحت بإصبعها على الفخذ الأيمن، كان الجلد قد فقدَ الكثير من تماسكه، بدا هشًّا ضعيفًا مسنًّا وقابلًا للتقشير، لم تظهر علاماتٌ للعفن، فقط بقعٌ أقرب للزرقة مع مسحةٍ خفيفة من الاخضرار حولَها تشبه الكدمات القوية، أو مكانًا أثخنته الإبر لفترات طويلة، أما العضو صار أصغر من الرؤية الأولى، تجمُّد الدماء فيه أفقده نصف انتفاخه على الأقل، مع كل هذا كان فارقًا مجاوزًا للطبيعة، أضف إلى ذلك أنه صار مقرفًا بحق.

بعدها وضعت كفيها كل واحدٍ على فخذ، لم يبدُ عليها أنها حددت المكان الذي تريده، فهي لم تقبض على أيٍّ من الفخذين بجدية، ثوان حتى غامت عيناها، انفتحتا بعدها وكلهما بياضٌ، كانت المرة الأولى التي يرونها بهذه الصورة المرعبة، صحيحٌ أن الزحام يخفف الرعب لكنهم تراجعوا أمامها فزعين، ضحكت (ليلى) –الصغيرة دائمًا– بمستوى صوت يتصاعد تدريجيًّا، ضحكت بهستيريةٍ عجيبة، حين وصل حدود الصراخ صرخت بعزم ما فيها ما أجبرهم على سد آذانهم، قبضت على

العضو بكلتي يديها، تشبثت به تمامًا وهي تصرخ وتصرخ، أحاطوا بها، حاولوا تخليص العضو من قبضتها، كانت خفيفةً جدًّا كرماد النار، ثبَّت اثنان منهم النصف، وحاول (سعد الجزار) حَمل (ليلى) بعيدًا عنه بعد يأسه من فتح أصابعها، كانت متحجرةً حول العضو، نتشةٌ فأخرى، استطاع انتزاعها بالفعل من النصف ولكن بعضوٍ مقتلَعٍ من جذره، بالطبع لم ينزف، وبالطبع كان طويلًا.

ذُهِل الجميع حتى أن (سعد الجزار) تركها خوفًا لتسقط على الأرض، حملوا ما تبقى من النصف وانسحبوا منهزمين غير مصدقين نجاتهم، الوحيد الذي خالفهم الاتجاه هو (محمد) الأب، والذي هبَّ من مطرحه على صريخ (ليلى) –الصغيرة دائمًا– وقت دخل عليها كانوا ينسحبون كفئران مذعورة.

أمسكت الصغيرة دائمًا بالعضو، وضمته إليها ثم بدأت تصرخ في جنونٍ، نبحت معها الكلاب في كل أنحاءِ النجع، تحول صراخُها إلى لطمٍ للخد، شدٍّ للشعر، وحركةٍ عشوائية، كانت تتمرغ في التراب، وترتطم بالحائط كبالون تحررَ منه الهواء، أخذت تحترق أمام (محمد القالع) الأب مجازيًّا، وكل ما تفعله من جنون يؤكد أنها تحاول إطفاءَ النار غير المنظورة بأية طريقة، ارتمت على الأرض كالمحترقة تمامًا، بدأ صوت نهنهاتها يخفت شيئًا فشيئًا، ويدها تفلت ما بها في وهنٍ...

لم يكن جرأةً من الأب ثباتُه أمامها حتى انطفت بل خوفًا كبيرًا، أفقده الإحساس بقدميه للحظات قبل أن يستعيدهما، وصلت النساء استجابةً للصريخ الأول دونما تأخير ودخلن الدار، دخلت (أمينة) قبلهن وكانت صاحبة الصرخة الأولى، صرخن أيضًا لكنهن بقين عندها حتى

بعد مغادرة (محمد) الأب، الغياب عن المشهد الأصلي يخفف الكثير عند مواجهة آثاره.

سار (محمد) الأب غير مصدقٍ لما رآه، كانت تحترق بلا أدنى شك، هل رأت حقيقته؟ وأيَّ حقيقة تلك التي تحرق كما رأى؟

بدأ الصغار يلهون كعادتهم، ينتظرون حتى يختفي الرجال ليمارسوا الوجود، رغم أنهم أولُ من يعرف كل شيءٍ، ما إن أحاطوا بالدار حتى بدأ التهاب المشهدِ يخفت قليلًا، ويخفت معه النباح.

لم يستطع واحدٌ تفسير ردة فعل (ليلى) –الصغيرة دائمًا– هي لا تكذب أبدًا، وكما يعتقدون: هي لم تكذب أبدًا.

***

عندما تزاحم الكبار في مضيفة الحاج (عوض الصباغ) كانت (ليلى) –الصغيرة دائمًا– قد انطفأت تمامًا، وخلا الكون بعد أن توجه الصغار إلى الترعة المحرمة عليهم خصوصًا وقت الصيف حين يفيض الماء وتصير بعمق رجل بالغ، هي ليست ترعةً بالمعنى الحقيقي بل عينًا متفجرة من الماء لا يعلمون أصلها، صنعت بركةً كبيرة ثم شقت أرضهم ومنحتهم ما يشبه الترعة على مساحةٍ محدودة، وقد اتفقوا على منحها اسم ترعة، كانوا يلهون وقد تعروا تمامًا، وخالفهم (محمد) الابن، يبدو أنها طبيعته التي ورثها عن أبيه وخالفَ بها جده (القالع).

عمومًا لم يكن يشبهُهم، كما أن أباه يبدو مختلفًا عن أقرانه.

كان لقب (القالع) نفسُه شديد الإيلام بالنسبة لـ(محمد) الأب،

الأمر لا يتعلق بالجد الأكبر وحدَه بل بأخيه الكبير أيضًا، وهو نفس السبب الذي يجعل (أمينة) تحذر ولدَها كل مرةٍ يعلن رغبته في تبديل اسم (محمد) بغضِّ النظر عن منطوق الاسم البديل.

تمرد (محمد) الجد على سلسال الاسم، ومنحَ ولده الأول – والمُعتَقَد ساعتها أنه الوحيد– اسمًا مختلفًا (عبد الرحمن)، لا أحد يعرف لماذا أراد إفساد السلسلة؟ ربما أراد الحياة كما هو (محمد) الابن، كان الحفيد لجده على ما يبدو، ورُزِق الجد بعد فترة طويلة بولدٍ آخر والذي منحه اللقب الثابت (محمد).

في مستهل النصف الثاني من خمسينيات القرن الماضي لم يكن للمال قيمتُه في النجع، كفايتهم وزيادة من أرضهم وبهائمهم –قيمة المال تحكمها الحاجة– والمال يفيد عند الخروج فقط، عارَضَ الوالد رغبةَ ولده في التعليم الجدي، وخمسة وخمسون قرشًا مستحيلة الطلب وقتها من أبٍ رافض أو أي آخر.

أتمَّ (عبد الرحمن) الثانية عشر من عمره وهو السن الذي أتمَّ فيه حفظَ القرآن أيضًا، كان قد تعلَّم مبادئ الكتابة على يد الشيخ (مأمون الأخنف) ولهذا اللقب قصتُه.

أصرَّ الوالد مرارًا على رفضه فكرة خروج ولده الأول والمختلف للدراسة، خاف عليه حين كسرَ السلسلة ولأن (عبد الرحمن) كان مختلفًا بحق، نبتت بذرةُ التمرد في صدره مبكرًا، توارد إلى مسامعه عن طريق أحد الرحالين أن (جمال عبد الناصر) قد طبَّقَ مجانية التعليم، وأنه أعلن أكثر من مرة: «**التعليم حقٌّ لكل مواطن، ومن لا يقدر حتى على دفع المصروفات الرمزية، فليتواصل معي عبر البريد و أنا**

سأعفيه».

«سيدي الرئيس العظيم، أطال الله عمركم، وزاد فضلكم، سمعت أن سيادتكم تعفون الفقراء من مصروفات الدراسة الرمزية، أنا فقير، و أتمنى الدراسة بالأزهر الشريف».

أكثر من عشرة رسائلَ على مدى بضعة شهور ولم يأتِ الرد، في اليوم الذي سافر فيه (عوض الصباغ) للدراسة كان ابن واحد من اثنين يملكان المال فضلًا عن الأرض والبهائم، الآخر هو والد (هاشم المجبراتي)، وكان (عوض الصباغ) يكبره ببضعة أعوام –تعلَّم (هاشم المجبراتي) أيضًا، لكني أخص بالذكر (عوض الصباغ) لأنه كان الصديق الوحيد للولد– فأصابت الغيرة قلب (عبد الرحمن)، وشعر بانكسارٍ أجبره على العزوف عن الدراسة، وانصرفَ يمزِع الأرض بفأسه في غلٍّ، بعد أقل من عامٍ عاد (عوض الصباغ) ليتقابل و(عبد الرحمن) من جديدٍ، تصافحا، حين تصافحا احترقَ (عبد الرحمن)، شعرَ بنعومة اليد التي يصافحها، بدت ناعمةً مثل النساء، وكانت المرة الأولى التي ينتبه فيها إلى طبوغرافية يده منذ عامٍ، تلك الأرض الظمآنة منذ بداية الخلق.

جرى إلى داره مقهورًا، وكتبَ رسالته الأخيرة بغير وعي: **«سيدي الرئيس، سأقتلك لأنك كذاب»**.

أحسَّ بكراهية شديدةٍ لشخص الرئيس، متمثلًا في صورة صغيرة اقتطعها من جريدة نادرة الوصول إلى نجعهم عن طريق رحال الوقت أيضًا، ألصقها مستخدمًا عجينة النشاء بجدار حجرته لأنه كان يحبه بصدقٍ.

لم يمر أكثرُ من ثلاثة أيام، وقبل أن يطلع النور في السماء كان النجع محتلًّا بعددٍ من مركبات الجيش يفوق عدد الدور نفسها، وجنودٍ أكثرَ من ساكنيها.

كان (مأمون الشيخ) -هذا قبل أن يصير (الأخنف)- هو أول من انتبه للضجيج السارح بالخارج، في لحظة فتحَ شراعة باب داره عاجَله أقرب الجنود بكعبِ بندقيته في أنفه، كسرَها بشكلٍ لن يجديَ معه الإصلاح فيما بعد، أغلقَ شراعته في استكانةٍ وهدوء، كتم صراخه كما كتم نزيف أنفه إلى أن انسحبوا.

يمكن ببساطةٍ استنتاج سبب إلصاق اللقب بـ(مأمون الشيخ) ليتحول إلى (مأمون الأخنف) قبل موته بقليلٍ، بالتأكيد أيضًا كان اللقب ناتجًا من تلك الطريقة التي عاش يتكلم بها إلى النهاية، وأفسدت قراءته للقرآن، بل وجعلت منه مسخرةً الجميع.

كسر الجنود الباب واقتحموا دار (محمد أبو عبد الرحمن القالع)، بدا عليهم السعار، لم يمنحوا الأم أو الأب أية فرصةٍ لممارسة الفزع، وجدوه مكوَّمًا يرتعد في ركن حجرته عاريَ النصف العلوي كعادته عند النوم، كان أشبه بجرذٍ يرتعد من الخوف والجوع.

ربما هي المرة الأولى التي رأى فيها أي فردٍ من النجع عتادًا عسكريًّا كاملًا، وبالأحرى جيشًا صغيرًا كامل التسليح.

رأى (عبد الرحمن) موته في عيون البنادق المحدقة، فأغلقَ عينيه وقرأ الشهادتين، قال من يظهرُ عليه أنه كبيرهم وهو يحاول انتزاعَ صورة (جمال عبد الناصر) من الحائط فمزقها.

– تم تحديد الهدف، والتعامل معه.

لم يعرف الولد هل المقصودُ بالهدف شخصَه أم شخص (عبد الناصر)؟

– إذًا، أنت من يريد اغتيالَ سيادة الرئيس! ما اسمك؟

سأله الضابط بنبرةٍ وحشية.

أجاب (عبد الرحمن) وقد بال في سرواله: «**(عبد الرحمن محمد القالع)**»

«**(القالع)؟!**» تأمله الكبير الوحشي، بحث بجديةٍ عن مصدر خطورة الجرذ الصغير، لمحَ بركة الماء التي يتكوم فيها، وجدَ أن الأمر شديد العبثية، لكنه ينفذ أوامرَ صارمةً.

– انزعوا عنه سرواله ليشبه اسمه.

قالها الضابط مكفرًا عن ذنب إحساسه بعبثيةِ الموقف، قالها بقسوة تتلاءمُ وطبيعةُ مهمته: إنقاذ الزعيم.

جردوه من ملابسه، ساقوه أمامهم عريانًا معصوب العينين ومكبل اليدين إلى الخلف، ساقوه في النجع كله يؤدبون به الجميع، لكنهم أغلقوا عنه عيونهم خوفًا وليس تعاطفًا كما حدث مع جده الأول منذ زمنٍ بعيد.

أخذوه من بينهم ولم يعدْ، لم يعد أبدًا.

كان (محمد) الأب في الثالثة من عمره وقتها، وما زال يرى كل شيءٍ

كما لو أنه يحدث الآن.

وصلَ (محمد) الأب داره بعد حوار مرهقٍ، وجدالٍ شاق في المضيفة البديلة عن ردة فعل (ليلى) –الصغيرة دائمًا– يجب التخلص من لعنة النصف بأي ثمن ولو فقدوا الأرض كلَّها، اتفقوا جميعهم على دفنه بعيدًا جدًّا وعميقًا جدًّا، حتى ولو عاندتهم الأرض، على أن يصير لهم سرٌ جديد لا يتكلمون عنه أبدًا كما (ليلى) الصغيرة دائمًا.

عند وصوله وجدَ ابنه يبكي بحرقة.

– تجمعوا عليَّ عند الترعة، خلعوا عني سروالي يا أبي.

***

(الأمر لا يتعلق بالفعل غالبًا بل بأثره، والذي يختلف تفسيرُه من شخصٍ لآخر، فما يبدو لأحدهم عاديًّا ومألوفًا قد يكون شديد الاستهجان والغرابة عند غيره).

وصلت الرائحة إلى الدرجة التي لا يمكن تجاهلُ أثرها، رغم ذلك ظلَّ الأطفال يلعبون بوجوهٍ مكشوفة غير مهمومين بها، على النقيض وصل الأثر عند الكبار إلى درجة التلثُّم، حتى أن (محمدًا) الأب وضع لثامًا حول وجهه في عودته.

بعض التطرف لدى الأطفال في لعبهم مقبولٌ عند الجميع، يبررونه بجملة بسيطة جدًّا: (لعب عيال)، أما عند (محمد) الأب والذي لا يشبه الآخرين فكان لعب العيال مع ولده شيئًا مريعًا وقحًا وشديد القسوة، ربما هو نوع من التطرف وحساسيته البالغة لبعض المناطق من

الجسد.

تعجب الحضور من عودة (محمد) الأب السريعة، كان قد غادر منذ دقائقَ معدودةٍ، لم ينقص من الجمع واحد بعدَه، عاد بوجهٍ لا يشبه ذلك الذي غادر به منذ قليل حتى وإن لم يكن قد حلَّ لثامه بعد، العيون تكفي أحيانًا.

– ولدك قليل الأدب يا ابن (الأخنف).

أخبرَ (محمد) الابن والده أن (عصام) ابن (مصطفى مأمون الأخنف) هو من قاد جمعًا من الصغار، وهو من جرده من سرواله أمامهم، لذا اختص الأب (مصطفى الأخنف) دونًا عن الباقين.

– وماذا فعل ولدي يا ابن (القالع)؟

لم تكن نبرة التحدي قد ظهرت بعدُ في استفسار (مصطفى الأخنف)، علم من الوهلة الأولى أن (عصام) الصغير هو المقصود بكلمة (ولدك) رغم أنه أنجبَ ولدين، لكن الكبير كان مجنونًا ولا يؤذي على الإطلاق، يقول أنه يسمع أغنيةً واحدة على الدوام؛ أغنيةً تخرج من رأسه وتمنعه النوم، هذا بالفعل يؤدي للجنونِ، وكلها أعراضُ تؤكد أنه لن يعيش طويلًا.

تابع (محمد) الأب...

– جرَّد ولدي من سرواله أمام الصغار!

هي فعلة تبدو مألوفةً، ليس عند (مصطفى الأخنف) وحده بل عند جميع المشدوهين من حوله.

حاولَ (مصطفى الأخنف) تجاوز الحدة الظاهرة، غلَّف كلماته بابتسامة مصطنعة اعتبرها (محمد) الأب مستهزئةً ومستفزة.

– لعب عيال، عقلك أكبر من هذا.

كان (محمد) الأب جادًّا للغاية، هذا متعلقٌ بطبيعته في تلقي الحدث، زادت شراسته قائلًا: «**هل أخلع عنك سروالك الآن، وتعتبرها لعبًا، يا ابن (مأمون الأخنف)؟**»

وضحَ التحدي على ملامح (مصطفى مأمون) حين أخذ وصفَ أبيه على محمل الجد، لكل منا ما يؤلمه وقد ضغط (محمد) الأب بقسوة.

– فعلتها أمام الجميع لأني رجل، أما أنت فتهربتَ يا ابن (القالع).

نطقَ (مصطفى مأمون) لفظةَ (القالع) بقصد الإهانة، اتكأ على كلِّ حرف منها فبدت كالسبة تمامًا، (تحمل الكلمات من ملامح ونبرة قائلها، أكثر مما تحمله في ذاتها)... لم يكن صديقَه في كل الأحوال.

– ماذا تقصد بطريقتك في النطق؟

كان (محمد) الأب ينتظر شرارةَ الاشتعال، وجاءت كلمات غريمِه التالية لتمثل تطورًا خطيرًا، وتحولًا للحوار.

– أبي (الأخنف) لم يكن ناكحَ بهائم!

ربما هي بالأصل أسطورةٌ غير مؤكدةٍ، لكن الأساطير لا تموت مهما خالفَت الواقع، كان يكفي فقط طريقة قولها، بدا على (مصطفى مأمون) أنه يصدِّق، ليكوِّمَ (محمد) الأب قبضته ويطلقها في وجه خصمه كاسرًا

أنفه، وبشكلٍ لن يجديَ معه إصلاحٌ أبدًا.

كان الأثرُ واحدًا، ولا يهمُّ إن جاء بلكمةٍ أو كعبِ بندقية، فرَّق بينهما الموجودون على الفور، صار (مصطفى الأخنف) مشابها لاسمه تمامًا، صار حقيقيًّا إلى حدٍ بعيد.

كانت لكمةً وحيدةً غيرت أشياءَ كثيرةً فيما بعد.

***

– لا بد أن يتوقف كل هذا الهراء.

صرخ الحاج (عوض الصباغ) في الجميع غاضبًا، ويبدو أن الخوف بدأ، خوفٌ شديد يرجع إلى حكايةٍ قديمة، تطورُ الأمور يقربها أكثر وأكثر، المخيف أن لديه شريكًا في الحكاية، شريكًا لا يعرف إلى متى سيصمت، حدثه (هاشم المجبراتي) في حلٍّ أثارَ حفيظته، حلٍّ مخيف بالنسبة له، وهو دفن النصف في العين المخصصة لعائلة الكبير، كانوا قد صرفوا (محمد) الأب جبرًا من المضيفة، بينما (مصطفى الأخنف) يحاول قدر استطاعته إيقاف نزف أنفه المكسور، كان يخشى الصراخ رغم الألم حتى لا يُكتَشَف صوته الجديد، ضغطَ وسمعوا صوت الغضروف العظمي يتحرك، أراد بشدةٍ أن يعيدها كما كانت ولو عنوةً، وأصرت أنفه على عدم الاستقامةِ من جديد.

– ألا تشمون الرائحة؟ نصف قتيلٍ في داري برائحةٍ قذرة، إنه بلواكم، ما لي ولعنتكم يا خلق؟

أخذ يلعنهم واحدًا واحدًا، يلعن من أشار بحفظه، ومن نقله إلى

داره، ومن قصَّر في الحفاظ عليه، لقد تشرد بينهم وهو كبيرهم.

– سندفنه عند الفجر في أبعد مكانٍ عن هنا، لن ننتظر أكثر.

ربما هي جملةٌ مُتفَقٌ عليها من قبل، لكن لا بد من التأكيد، قالها الحاج (عوض الصباغ) في صرامة، وأمَّنَ عليها الباقون فورًا.

دخل (سعد الجزار) والذي اصطحب (محمد) الأب إلى داره وعاد، أخذ يتصبب عرقًا كثيفًا، وفاضت ملامحه وأنفاسه بالرعب كأنَّ كلبًا مسعورًا لاحقه حتى الباب.

– لقد طلَّق (موسى البقال) زوجته (هنية).

قالها بملامحَ فهمها الجميع، لم يكن ينقصهم سوى أن تهذي (ناعسة) في غيبوبتها، كانوا ينتظرون بالفعل، لكن التوقيتَ غير مناسب على الإطلاق، أغلقت كهفَ أسرارها لسنوات وفتحت الغيبوبة له بابًا من الجحيم وفي وجه النساء.

كانت تلطم خديها في الشارع أمام الواقفات، فضحَت زوجها، لقد وصفت (ناعسة) جسده بالتفصيل، ذكرت علاماتٍ لا تعرفها سوى (هنية).

ركضت المصائب بينهم كحميرٍ ملتهبة مذعورة، وبدأت دهسهم بعشوائيةٍ، لا أحد يعرف دوره في الدهس، وهذا مخيفٌ في حد ذاته.

– تعكر اللبن، ولن يصفو مرةً أخرى، أبدًا.

قالها الحاج (عوض الصباغ) لجليسه الوحيد، وصاحب الدار

(هاشم المجبراتي)، كانت الرائحة زاعقةً والأحداث مفزعة، لا بدَّ من نهايةٍ بأي ثمن.

يتبقى شيءٌ وحيد قبل النهاية سيفعلونه بالتأكيد، يخص (ناعسة).

***

–16–

(يظن البعض أن العودةَ إلى نقطة ما قبل البداية ممكنةٌ فقط إذا استطعنا عكس الاتجاه، لكن في الحقيقة هذا يحتاج إلى محو الأثر بالإضافة).

كانوا ستةً فقط: الحاج (عوض الصباغ)، (هاشم المجبراتي)، (سعد الجزار)، (مصطفى الأخنف)، و(موسى البقال) مجتمعين في دار (رضا الخشاب)، لم يكن وجودهم مرغوبًا فيه على الإطلاق، وإبرام مصالحة بين متخاصمين فعلةٌ لا تبدو منطقيةً في تلك اللحظة بالذات، ما تعكر قد تعكر، لكنهم يحتاجون (رضا الخشاب)، فهو الوحيد الذي يمكنه فعلها –في معتقدهم الخاص– طبيعته الجافة القاسية، نقمته على كل شيءٍ، وقاحته التي تكشف داخله دائمًا، كلها صفات قد تسمحُ بالتفكير فيه كقاتل رغم أنهم لم يختبروه من قبل، فقط يذكرون تاريخًا لجده الأول لا يمكن نسيانه.

– أنا أقتل؟! هل جننتم؟

بالفعل أفسدت الرائحة كل شيءٍ حتى عقولهم، كرر (سعد الجزار) ما قاله مرةً أخرى: «**أنت من بدأ كل شيءٍ يا ابن (الخشاب)، أنت الوحيد الذي يمكنه قتل (ناعسة)، خلاصنا بيدك وحدك**».

ربما رأوا في قتله لـ(ناعسة) تكفيرًا عن ذنب إشعال الفضيحة، أما رأس (رضا الخشاب) فهو لا يعمل بهذه الطريقة أبدًا، لم يرتبْ كلامه من قبل، ولطالما أصاب امتعاض الآخرين، لكنه لم يضطر للتكفير أبدًا.

إنه لا يهتمُّ بالعودة ولا بالأثر، الخلاص ليس جزءًا من دينه، ومن ذا الذي يجبره على فعلةٍ كهذه؟

تأذى مثلما تأذوا، لكنه ما زال قادرًا على استعادة زوجته، وإن كانت مجذوبةً لحظيًّا، لكنها ستعود حتمًا، ويمكنها العودة إلى نقطة ما قبل البداية في استكانةٍ تامة، سيشفى بالتأكيد وتستمر الحياة على طبيعتها، لم يتخيلوا الألم الرهيب الذي يأكل رأسه بفعل الجرح الغائر والذي يبرر اهتياجه الحاد...

(الجروح البالغة في بدايتها مؤلمةٌ أكثر من أي لحظة أخرى، لكن التفات النفس إلى الروح تجعل إدراك الحياة أولى من إدراك الألم، هذا يفسر كيف يكون اليوم الثاني أشد قسوةً من يوم الحادث، وقد جاؤوه في اليوم الثاني... إنهم أغبياء بدرجة تستحق تهور (رضا الخشاب) حين هبَّ من جلسته، وأمسك عصاه الغليظة مشهرًا إياها في عيونهم، بدا عليه التهور الشديد والقدرة على ارتكاب أية فعلةٍ، يبقى فقط أن يستمروا في كلامهم السخيف).

- اخرجوا من بيتي، وإلا قتلتكم.

تبادلوا النظرات اليائسة، خرجوا دون كلمةٍ واحدة، فقدوا حلًّا بدا هو الأسهل أن (رضا الخشاب) مثَّل دور القاتل بشكل ممتاز، كلهم صدقوه حين صرخ في وجوههم «**وإلا قتلتكم**» مع ذلك رفضَ.

هناك من هم أكثر احتياجًا لموت (ناعسة)، (موسى البقال) مثلا، فقد زوجته مضطرًّا، وانفضح أمام الجميع بلسانها، (سعد الجزار) قد ينفضح مثل الباقين، تأذت تجارته حد الموات، وهو أدراهم بالذبح

والدماء، ولماذا يريدون ذبحها أصلًا؟ ألا يكفي الخنق؟

عجيب أن كل واحدٍ منهم تخيلَ نفسه يذبحها حتى (هاشم المجبراتي) صاحب الستين عامًا، والذي لو باحت بسرِّه لبات مسخرتهم للأبد، ربما لأن الخنقَ فيه اتصال مباشرٌ بين اللحمين، إحساسٌ كامل، وبالتالي لعنة كاملة.

قرب دار (هاشم المجبراتي) تسمَّر (مصطفى الأخنف) وكأن الصمغ في نعليه قد جفَّ، التفتوا إليه.

– سأفعلها أنا.

قالها بجمودٍ وبساطة شديدة، الأهم من كل هذا وبصوتٍ جديد، تأمل الجميع وجهَه في ذهولٍ، كانوا يرونه في صورةٍ مختلفة، بعض الكلمات قد تغير ملامح قائلها، بالتحديد حين يعلن بها عن جنونه، وقد أجمعوا فيما بعد على أن عقله فسدَ كما هو أنفه.

كسرٌ بالأنف لا يبرر هذا التحولَ الشنيع، ابن محفِّظ القرآن، والذي بالضرورة ورث مكانه في تحفيظ الصغار لا بد وأن يكون قد ورث أيضًا طيبته كصورته التي اكتملت بطريقة النطق المضحكة، إنه يثور على الوراثة مع أنها تنطبق عليه حرفيًّا.

الأقرب هو غلٌّ قديم استمر إلى النهاية، فقد صار والده محفظ القرآن مضرب الأمثال في عدم إجادة قراءة القرآن، كل من لا يقرأ القرآن بشكلٍ سليم يُنسَب إلى الشيخ (مأمون الأخنف)، إنها إرادة الانفجار في أمان تام، أراد الخروجَ من الإطار الذي حبسوه داخله، سيقتل دون جريمةٍ وتحت مسمى (التضحية لأجل الجماعة)، كان من القليلين الذين

لم تنلْ منهم (ناعسة) ومع ذلك صار الأقرب لقتلها.

«لكن بشروط»... لحق كلماته السابقة بهذه الجملة، وعلى قدر دهشتهم كانت دهشته.

– لو كان ابن (الخشاب) قد و افق، كنتم ستنظرون إليه نفس النظرة.

قالها مواجهًا إياهم بالحقيقة، عدم وجود قاتلٍ حقيقي بينهم لا يعني أن أحدًا لن يقتل، كل واحدٍ يمكن أن يصبحَ أي شيءٍ إذا ما توافرت الرغبة الحقيقية ونوع من الأمان، ربما لو يئسَ أحدهم من النجاة لفعلها بنفسه دون مشورة الآخرين.

تابع (مصطفى الأخنف):

– سأفعلها أنا، وأريد أربعة شهود، يشهدون أن (عبده الرحال) هو من قتلَها، عمومًا لن يتضرر (الرحال)، الحكاية ستكون شبيهةً بقضية الشرف، جاء وقتلَها، ثم هرب، النساء عرفن كل شيء الآن، ويشعرن نحوها بحقدٍ شديد، سيكون قتلُها حلالًا ما دام بيد زوجها، عندها سيو افق الجميع على دفنها في صمتٍ، وسيقسمون على عدم ذكرها مرةً أخرى.

شعروا بغباءٍ شديد، كل تقديراتهم تهاوت إلى الحضيض، إن (مصطفى الأخنف) يتحول إلى قاتلٍ بحق، وإن كان تمثيلًا فهو يجيد التمثيل، لقد حكموا عليه من قبلُ وخاب حكمهم، حكموا على (رضا الخشاب)، تخيلوا أن ملامحَ قاسيةً يمكنها القتل ببساطة حتى وإن فعلها جده الأكبر ذات مرةٍ، فذلك لا يبرر حماقة التفكير، لقد خابوا، حكموا

على الأحياء بميتٍ، كانت مقارنةً غير منطقية منذ بدأت، ربما أرادوا التأكد من شيءٍ، وما زالت الخيبة المحيطة تضيق خناقها عليهم.

أراد (مصطفى الأخنف) بالعدد الذي حدده الحصول على أكبر قدر من الحماية مستقبلًا –أفضِّل تسميتها بالجريمة الناعمة– ولم يكنْ أحدُهم ليمانع كي يخرس (ناعسة).

***

-17-

إن (محمد القالع) الجد الأكبر ليس من نبات النجع الأصيل، ولا يمكن اعتبارُه عشبةً شيطانية، حاله حال الرعيل الأول بأكمله، صحيحٌ أنه يضرِبُ بجذره إلى الأعماق، واستمر رغم طبيعة نسله المتفردة، ولدٌ وحيدٌ لكل ذكر وما تيسر من البنات، ذلك كُتِب على سلساله بلا تفسيرٍ منطقي، السير في خطٍ مستقيم لا طرقَ جانبيةً على الإطلاق، ربما حاول أحدهم من قبل تغيير المسار، في النهاية تبقى ولدٌ وحيد لكل ذكر.

عمومًا كانت البداية تشبه عملية نقل الشتلات إلى أرضٍ جديدة، كان النجع خاويًا إلا من كوخ (ليلى)، ولربما كان وجود الكوخ هو السبب الرئيسي في اختيار الشخص الأول للاستقرار فوقَ تلك الهضبة الشاسعة، إنها الرغبة في الونس ولو بجوار الصغيرة دائمًا، جاءوا تباعًا على فتراتٍ متقاربة أو متباعدة من أراضيهم إلى جوار (ليلى) الصغيرة دائمًا، لقد حملوا معهم ذكرياتٍ قديمة وهذا لا يجعلهم من نبت الأرض فعليًّا.

عندما تغيب الحقيقة يصبح لكل الحكايات قيمتها، بل وتكون فرصةً ممتازةً لإعمال الخيال، واختلاق ما يناسب هوى كل فرد، لذا دائمًا ما يبدو الحكي عن أصول الأجداد أسطوريًا وخرافيًا أيضًا، ومن الطبيعي أن يتوقفوا عند أعجبِ المرويات، هذا ما دعاني لتجنب حكاية الأصل الأول، واستبدالها بأخرى أعتقدُ في أهميتها.

دخلَ النجع بعد سنواتٍ قليلة من نشأته، عشرةُ أكواخٍ تقريبًا

بجانب كوخ (ليلى)، دخله على أتانٍ عرجاءَ، كان ضخمًا بحيث تلامس قدماه الأرض راكبًا، وبدرجةٍ تجعل الربطَ بينه وبين آخر نسله مستحيلًا على مستوى البنيان، وضعَ أساس أولِ دارٍ واسعة بالطين، والتي تهدمت وأُعِيد بناؤها أكثرَ من مرة مقابل قطعتين من الذهب الخالص، ثم تملَّكَ أرضًا مقابل قطعتين أخريين، أربعٌ من القطع الذهبية لا تتسق ودابته العرجاء –لذا اعتقدوا تمامًا في امتلاكه لكنز يخفيه– بدا عليه أنه يحبها، وفضلَها على باقي بهائمه التي قتلتهُ من بعد، كان اهتمامه وارتباطه بها عجيبين، صحيحٌ أنه دخل النجع على ظهرها، لكنه لم يركبها بعدها قط، كان يحممها بشكل دوري ودقيق، بل ربطها في داره وليس في الزريبة الملاصقة مع باقي البهائم، الكل رأى عدمَ نفعها مطلقًا، كان قد كسرَ أنف أحدهم في عراكٍ صغير، انتهى الأمر بأن أشاع ذلك الأخنف أنه يضاجع أتانه، خفتتِ الشائعة بعد زيجته الأولى، من عشرةِ زيجات، جميعها لأجلِ الذكر، الحكايات لا تموت ما دام أحدُهم سمعَ بها، إنها موجودةٌ وحية كما ظهرَ في موقف كسر أنف (مصطفى الأخنف).

هذه حدود علمهم وروايتهم للقصة، وفي الحقيقة لا تتوقف الشائعة في الريف عند صاحبها كما بالمدن، عرفَ (محمد القالع) الجد الأكبر بما أُشيع عنه وكتمها في صدره، تزوجَ وماتت زوجته تسعةَ مرات، في النهاية تحصَّل على ولدٍ وماتت زوجته، لم يحزن عليها نصف حزنه لحظة موت الأتان، لقد اعتاد فقد الزوجات ولم يجرب أبدًا فقد أتانه، إنها حالة التعادلِ الشعوري تجاه الأشياء كلها، حالة اللاحب واللا كره لكل ما دونَ حمارته العرجاء، كانت تُسَلِّم روحها وهو على يقين من أنها استهلكت سنواتها دون نقصان فقد عاشتها تقريبًا عنده، أعلنَ عن مأدبةٍ، وكان ابنه (محمد) قد بلغَ الفطام، لذا حملت نفس الاسم

(مأدبة فطام محمد بن محمد القالع)، دعا كل أهل النجع إليها، وكانوا معدودين وقتَها، ذبحَ أتانه قبل الموت مباشرةً، الذبح أرحم من لحظات الغرغرة بالتأكيد، أخذ وقتًا في قطع الجسد، قطعه إلى نصفين بكل تؤدة واهتمام، ثم أطعمَ المدعوين نصفَها بالتمام، أكلوا بشراهة، قالوا إنهم لم يذوقوا طعم لحمٍ أشهى طيلة حياتهم، كان طريًّا ناضجًا ومسكرًا، دفنَ النصفَ بالرأس في الزريبة، ويبدو أن الحمير أضمرت غلًّا لفعلته أفرغوه فيما بعد، وللعلم كانت ردة فعل الحمير هي السبب الرئيسي في عدم حب (محمد) الأب لبهائمه، وعدم ارتباطه بها كجده الأول، يمكننا القول أنه يكرهها إلى الحد الذي سوف يظهر في نهاية الأحداث.

لم يعرفوا نوع اللحم ولم يهتموا بالسؤال، كان شهيًّا بما يكفي، العجيب أنه بدا عليهم نوع من الغباء توارثه أغلبهم، حتى ولو لم يدركوا هذه الحقيقة.

***

-18-

حطَّ الليل كاملًا وقت دخل (محمد) الأب داره، كان قد تاه في المساحة بين الدور والبراح بقدرٍ من النهار وقدرٍ أقلَّ من الليل، ذلك بعد أن أودع أخته المطلقة داره.

كان جالسًا عند البقعة التي نبت منها النصف، لم يستطع منعَ نفسه من البحث عن دليلٍ يربط بينه وبين أحدهم دون جدوى، إنها نزاعات النهاية، تلك الأفعال التي لا قيمة لها، ونفعلها مع اليأس دائمًا.

(حين استسلم تذكر أنف صاحبه، تأمل قبضته في شرودٍ، نصف، عضو ذكري، أنف، لسان، وقبضة، أجزاء كثيرة عندما تتحدُ تشكل الإنسان، كل منها يمكنه العملُ منفردًا، لكن ذلك التناغمَ بين الأجزاء هو ما يشكل إنسانيتها، كل جزءٍ سيبدو مخيفًا إن تمرد، وقد فقد سيطرته على قبضته في لحظةٍ قريبة، فقد تناغمها مع باقي الأجزاء، فماذا لو فقد عضوًا آخر؟ مثلما فعل لسانُ ناعسة، مثلما فعل جسد (ليلى)؟)

كان رأسُه يقوده إلى حقيقةٍ واحدة: إنه يشبههم، يشبههم تمامًا.

نام الصغيران واستسلمت معهما (نجية)، أما (أمينة) رغم الصداع الذي أمسكَ برأسها، بل وجعلها تشعر بأن رأسها أكبرُ من طبيعته، فقد كانت متأهبةً لاستقباله، وكأنها مهدتِ الطريق إلى خلوةٍ تامة في حجرتها، وقعت عينه عليها، امرأةٌ تجردت من الزحام المحيط، جميلةٌ هي حين تتناغم مع هيئتها الخارجية، كان (محمد) الأب بحاجةٍ إلى بداية جديدةٍ لم تتبعها حياة بعد، وهو لا يملك كلماتٍ يبدأ بها، لا يملك سوى طاقةٍ

مكبوتة تكاد تنسفه، تحرر من ملابسه كعادته وقت تأهبه للنوم، لم تبدُ على ملامحه أمارات الرغبة مطلقًا، استدارت (أمينة) في فرشتها مانحةً إياه ظهرا، لم يكن الأمر خصامًا قدر ما كان استسلامًا لبرود وجهه، توقعت أن يضجع إلى جوارها دون كلمة، لكنه أمسك قدميها بغتةً وشدها إليه في قسوة، لم تكن مهيأةً للدهشة حتى فجاءت نظرتها خاليةً من التعبيرات، فقط نظرت إليه جيدًا وهو يُتمُّ سحبها إليه ويباعد ما بين فخذيها، تحولَ فراغ عينيها إلى الرغبة العارمة وهو يملأ فراغ لحمها، تبدلت ملامحُها، لم يحدد إلى أي وجهٍ تنتمي وإثارته للاشتعال، أخذ ينهج بشكلٍ لم تعرفه في أية بداية له وكأنه بدأ من قبل أن يأتيها، انسابت معه وكادت تلامس جسدَه بكفيها، شيءٌ بداخلها منعها ولم تمنعه، لم ينشغلا بكيفية الانفصال مرةً أخرى، كان بحاجة للنسيان، تبديل عالمه، وبدت (أمينة) كعالمٍ بديل.

للحظات اعتقدت أنها تخلصت من عصفِ الظنون، هي لا تمتلك سوى جسدها حين يتعلق الأمر بزوجها، لم تفتح عينيها، فقط أحسته، رغبته في الانفجار، وقسوته معها للمرة الأولى، إنه يتألم وألمه يسري في عروقها، يتألم لدرجةِ الصمت التام، كانت ليلةً أشبه باختبارٍ أخير، يخوضانه رغما عن نفسيهما، أرادت له (أمينة) من كل قلبها أن ينجح، ورغم النجاح البادي لم يتوقفِ الغليان، بل ثبت عند درجة تسمح بالاستمرار فقط.

كان سريعًا قاسيًا وممتعًا إلى الدرجة القصوى، والأجمل أنه كان عفويًا مفتقدًا للمقدمات المملة، كان التحامًا يشبه التحام نجمين والأثر يبقى إلى نهاية الحياة: انفجار، حرارة، ثم ضوء حتى الفناء.

استلقى إلى جوارها كالغريق، أغلب مشاعر الحب تبدو جيدةً في مرتها الأولى بغض النظر عن قدرتها على الاستمرار بنفس الجودة مستقبلًا، أحسَّ لحظتها أنه استعاد تلك المرة الأولى، كانت لديه القدرة على التعبير عن ذلك والرغبة أيضًا، قبل أن يبرد جسداهما اشتعل النجع بصراخ ذكوري عجيب، عندما تفقد الأنف تأثيرها الصوتي المألوف يصير الصراخ أشبه بصفير قطارٍ بعيد.

ميَّزَ (محمد) الأب صوت (مصطفى الأخنف) الجديد وهو يستر جسده بجلبابه، انطلق قبل منح زوجته (أمينة) تلك النظرة التي استسلمت من أجلها، وتخلت هي عنها بكامل إرادتها تحت تأثير الصراخ، فقط تحسست رأسها أمام المرآة طويلًا.

وصلَ (محمد) الأب إلى بؤرة الصوت، راعه أن دار (ناعسة) هي التي تصرخ، تجمَّع النجع بكلابه حول الدار، وبدا أن أربعةً من الرجال قد سبقوا الجميع حين دخلوا وجدوا (مصطفى الأخنف) متشبثًا بسكين ضخم غير متسقٍ مع طبيعته، ولا أثر للدماء حول (ناعسة)، لا أثر لأية دماءٍ، أحاطوا به، خلصوا السكين من بين يديه، وتقريبًا كان بحاجةٍ للتخلص منها، فلم يقاوم نهائيًا.

– وجدتها ميتةً، وجدتها ميتة.

كرر (مصطفى الأخنف) مقولته عشرات المرات دون انقطاع، بالفعل كان الوضع يدلُّ على أنها ماتت دون تدخل منه، لا دماء، أو جروحًا، لا شيء غير طبيعي على الإطلاق لولا غياب النساءِ جميعهن في نفس اللحظة، الغياب الذي رتبوا له.

كان المشهد أعقد من استيعاب مدبري الحادثة، بينما بدأت النسوة العويلَ المألوف في مثل هذه المشاهد، لقد ماتت الحقيقة معها.

(لا أعتقد أن هناك من أراد ممارسة القتل مثل (مصطفى الأخنف) لدرجة أن صدمة موت (ناعسة) تركت أثرها على عقلِه فيما بعد، قتلته بموتها حين لم يعد لذبحها معنى، وقد غامر بكلِّ ما فيه من أجل المعنى، لذا اختار سكينًا ضخمًا أضخم من قدرته نفسه على القتل).

«**ما الذي أتى بـ(مصطفى الأخنف) إلى دار (ناعسة)؟**» كان سؤال (محمد) الأب منطقيًّا، ومثيرًا لعددٍ من الأسئلة المترتبة عليه.

همسَ (سعد الجزار) في أذنه: «**تطوع ليقتلها من أجلنا، فوجدها ميتة، ربما أفقده الموقف عقله، ففضح نفسه**».

وصلَ المعنى كاملًا لـ(محمد) الأب، اتفقوا على قتل لسانها وسبقتهم، تأمل حال (مصطفى الأخنف) الذي لم يتوقفْ عن ترديد جملته: «**وجدتها ميتة**».

شعرَ بجريمته في حق ذلك الرجل الذي فرضت الوراثة عليه طباعًا لا يحبها، فحاول التمرد كي لا يصير مسخرةَ النجع مثل أبيه.

بدأ يستوعب موتها، دائمًا يبقى آخر شيءٍ من كل شيء هو الأشد إيلامًا بغض النظر عن لذة النهاية أو مرها، إنه ألم الفقد وخزن الذكرى، تعجب أن الفراق جاء بلا طعمٍ، والأعجب أن مذاقها لم يزل عالقًا بروحه، هل ستأتيه ثانيةً؟ تتمثل في أحلامه جديدة كما تركها؟ أم أنها ستموت حقًّا؟

قال بصوت خفيض، أقرب إلى اليقين:

«لقد قتلناها جميعنا».

***

-19-

أجمل ما يميز الأطفالَ القدرةُ على النسيان، وتجاوز الكراهية بسلاسةٍ ونعومة، وقتَ طلع الصباح انغمس (محمد) الابن بين الرفاق، لا يحمل لأذاهم الفائتِ أية ضغينةٍ، مارسَ متعة اللهو في الماء معهم وكأن شيئًا لم يكن، غيابُ الكبار دائمًا يعني متعةً وحرية بلا حدود، في هذه المرة خلع سرواله بكامل إرادته، لم يكن هناك خيارٌ ثالث، إما أن يشبههم أو لا يشبههم، ويبدو أن الولدَ اختار بالفعل، شاركهم لعبة قياس طول العضو، كان ترتيبه الثالث وهو ترتيبٌ مرضٍ تمامًا لمن تخلص من خجله للتو.

الطريق إلى المقابر ذهابًا وعودة، بالإضافة لطقوس الدفن يتجاوز الساعة تقريبًا، وهو زمن كافٍ لتشبع الصغار.

(عندما تتأمل جمع الكبار، وتلك اللثم التي تخفف شيئًا من رائحة الهواء يمكنك القولُ أنهم يستترون من عارِهم، أو سُلِبوا ملامحهم المألوفة، أما الأطفالُ فقدرتهم على التكيف أكبرُ وأسرع، هم يتكيفون مع ضراطِ أقرانهم أو خرائهم مكان اللعب، هذا لأن أنوفهم لا تكون قد اكتملت بعد، فتبقى قدراتُهم على التكيف والتعود أكبرَ من تلك التي اكتمل تكوينها، وميزت الروائح جيدًا).

قال (نجيب) الابن الأكبر لـ(رضا الخشاب) قبل اقتراب العودة: **«تعالوا سأريكم شيئًا عجيبًا».**

ساروا تحت تأثير نفادِ الوقت، ونبرته المستفزة لفضولهم، وصلوا

إلى داره، أشار إلى خلفها، كان فأرًا أسيرًا في مصيدة خشبية، علم (محمد) الابن من الوهلةِ الأولى أنه الفأر السابق، التطابق الشكلي لا ينفي إحساس طفلٍ مثله، بدا الفأر مرهقًا حيث لم يقدرُ على القفز مع محاولتهم المستمرة لاستثارته، مستخدمين عودًا من البوص الرفيع.

«**إنه يموت**»... قالها (محمد) الابن بشفقةٍ بالغة، ثم تابعَ متعجبًا: «**انظروا، ذيله مقطوعٌ، وعليه دماءٌ جامدة**».

قال (نجيب) بفخر من يملك السرَّ: «**رأيته يأكل ذيله قطعةً بقطعة، كان جوعانًا، له أيام وهو على حاله**».

المشهد لا يوحي سوى بالألم إلا إذا كان الولد قد ورثَ نفس قساوة أبيه.

لطالما كره (محمد) الابن لقاء (رضا الخشاب) بسبب عبوسه الدائم، والآن بات يكرهه أكثر من أي وقتٍ مضى.

دارت أسئلةٌ كثيرة في رأس الابن، لماذا أكل الفأر ذيلَه؟ هل كان يأمل في مهربٍ ونجاة؟ لماذا أطال فترةَ عذابه؟ ولماذا لم يمتْ فحسب؟

الألم مقابلَ الحياة هو أسوأ ممن يشربُ بوله في صحراءَ ملتهبةٍ، إنه فأر ولا شيء سوى فأر، ولأنه كذلك نسيه من صاده.

رغم محاولات منعه فتح (محمد) الابن باب المصيدة ولم يحرك الفأر ساكنًا، كانت به حياةٌ لا تكفي للهرب أو يأسٌ لا يكفي للحياة، الأمر لا يتعلق غالبًا بإزالة الأسوار قدر ما يتعلق بالرغبة في النجاة، ويبدو أن ثبات الفأر على وضعه هو ما منعَ (نجيب) عن ضرب (محمد) الابن،

أعاد (نجيب) غلق الباب، ونسوا أمر الفأر مطلقًا.

لم يعد واحدٌ من الكبار إلى داره بعد الدفن، قطعوا جزءًا منهم بكامل رضاهم كي تستمر الحياة، ماتت (ناعسة) لمجرد احتمالٍ شبه مستحيل في النجاة.

في دار (هاشم المجبراتي) تجمع الرجال والنساء، وضعوا أيديهم بالتتابع فوق المصحف، وأقسموا ألا يذكروا اسم (ناعسة) وألا يمنحوا طفلةً اسمها، تمامًا كما هو النجع فارغٌ من غير (ليلى) الصغيرة دائمًا، زانيةٌ ضربها زوجها إلى الموت، هذا ما سيطر على الموجودين.

لا (ليلى) ولا (ناعسة) ولا (فايز)... إنه النسيان، الحماية والعقاب في آن واحد.

اتفق الجميع على الراحة قليلًا، ثم دفنَ النصف زاعق الرائحة، واضعين بذلك حلًّا قاطعًا لمصائبهم الدائرة، اتفقوا أيضًا على الجهة التي سيضحون بها، أقروا عدم احتياجهم للنساء هذه المرة، ولن يتركوا شيئًا يؤَجِّل ما أقروه.

عدَّل كل منهم لثامه وانصرف إلى داره، عاد (محمد) الأب وكان الابن منتظرًا.

«أبي، هل يأكل الفأر ذيله حين لا يجد ما يأكله؟»

تذكَّر الأب (ناعسة) وقال في حزن يشبه ذلك الذي للفراق:

«نعم، يأكله يا ولدي».

***

-20-

(هاشم المجبراتي) كبيرُهم الأصلي، وسلسال عائلةٍ من اثنتين تُحسبان على الطبقة الغنية، صحيحٌ لم تسمح طبيعة النجع المكتفية بذاتها على تكوين طبقاتٍ واضحة، لكنهما امتلكا المال إضافةً إلى الأرض، وكما تعلَّم الحاج (عوض الصباغ) تعلَّمَ (هاشم المجبراتي) ثم تعلم (فايز) ابن (هاشم المجبراتي)، بينما (عوض الصباغ) كما ذكرنا لم ينجب لأسباب تخص ضعفَه وحجمَ قضيبه، ويبدو أن أخَ الحاج (عوض الصباغ) -أحد الراحلين- لم يهتمْ بالتعليم وكان صديق (هاشم المجبراتي) المقرب.

(لا أدري كيف تلاشتِ الفروق بين المتعلم والجاهل في ذلك النجع؟ يبدو أن التعليمَ لم يضف إلى تكوينهما الكثير، يملكان نفسَ طريقة عمل باقي الرؤوس، ربما هي طبيعةُ ما تعلماه منذ سنواتٍ طويلة وربما غياب التطبيق).

المهم، كانت لـ(هاشم المجبراتي) قصةٌ شديدة السخف، مملة حدَّ السذاجة، وهي شديدة الأهمية للأسف، تنازل (هاشم المجبراتي) عن (كبارة) النجع عنوةً للحاج (عوض الصباغ) تحت تأثير الجماعة منذ ما يقارب العشرينَ عامًا، ولكونه لقبًا مرهونًا بعائلته كان التفريط فيه عارًا سيلاحق صاحبه إلى النهاية، لم يجرؤ على إبداء الاعتراض، ومن يتابع الأحداثَ بدقة سيعلم أن موضوعَ التنازل عنها قد ترك أثرًا عظيمًا في نفسه، بل ويصل إلى حدود الحقد والغل غير المعلنين، أسرَّ بشعوره لبعض رفاقه في سهرات أنسهم التي توقفت تمامًا، ذلك رغم أنه أكثر من

مجبراتي في واقعهم، إنه الطبيب البدائي الذي يساعدهم على الشفاء، لم يدرسِ الطب بالطبع بل اللغة، جبر الكسور وراثةً في المقام الأول، وبطبيعة الأمر يضع له قدمًا مع باقي الأمراض، وكان مجيدًا بدرجةٍ تدعو للدهشة والإعجاب...

خرجَ ولده (فايز) ليتعلمَ أصول اللغة بالأزهر الشريف، ويبدو أن حرية الولد مع انقطاعه عن أهله قد منحاه نوعًا من التهور، فارتكبَ فعلةً شنعاء، لا أحد يعرف الفعلة تحديدًا ولا أنا، لكنهم تخيلوا أن لها علاقةً بالنساء، نساء الأكابر، الابن لأبيه، ذلك ما قالوه، فقد كان معلومًا شغف (هاشم المجبراتي) وولعُه بالنساء، وكلهم يتندرون على عجزه الآن، يرون فيه مثالًا لا بد وأن يُجتَنب...

بدت الشرطة تقليديةً جدًّا حين دخلت النجع ظهرًا، غبارٌ كثيف يصطحب عددًا من السيارات مكشوفة الخلفية، وصوت سارينة أوسع من النجع نفسه، لم يكن (هاشم المجبراتي) يعلم شيئًا عن ابنه بالفعل، لا أحد يعلم لذا بدا صادقًا حين أجاب على سؤالهم: «**أين ولدك (فايز)؟**»، قال: «**لا أعلم**»، ولم يكذب.

أحبَّ (هاشم المجبراتي) النساء –بحكم انكشاف أجسادهن عليه– وبالتالي أحبَّ الحياة، أحبها جدًّا، هذه هي الطبيعةُ المادية البحتة، الشهوةُ تحتاج إلى حياةٍ، ويمكننا تخيل المشهد النهائي حين قيدوه إلى السيارة (نصف نقل) التي تفضلُ الشرطة استخدامها، ولأنه يحب الحياة بشكلها المادي اعتقد للوهلة الأولى في الفناء، في دنو الموت أو اللاموت مع تلكَ التشوهات التي قد يحدثها السحلُ بجسده، كانت النهاية قريبةً جدًّا، وكان الضابط شديدَ الجدية والغلظة، بال في سرواله

على مشهدٍ من الجميع...

مؤسفٌ هو الانكسار أمام من يعرفونك، أدركَ الضابط ساعتَها جهله بأيةِ معلومةٍ، لم يكن سيفعلها في الحقيقة لكن (هاشم) صدَّق بكل كيانه، اكتفوا بكسره إلى الحد الأقصى بالطريقة المعتادة المتوقَّعة والمخيفة، ثم غادروا دونما اعتذار، لذا يحرص أهل النجع على عدم عودتهم.

كان للموقف أثرُه البدني على الرجل، فقد عضوُه القدرةَ على الانتصاب نهائيًّا، ورقَّ صوته بعدها بدرجةٍ ظاهرة ومثيرةٍ للاستغراب، قالوا إنها الصدمة أو (الخضة) كما يحبون تسميتها.

أجهده البحث عن علاجٍ، نصحه أحد الرحالين بالمستشفى المركزي، استطاع الطبيب هناك معالجتَه إلى حدٍّ ما، بدأ يشعر بالرغبة من جديد، لكنها رغبة تخفت سريعًا، لدرجة أنه كان يستمني دون إرادته لمجرد لمس لحم أي امرأة، وعرفت النساء، كن يستمتعن بارتعادته السريعة وعدم تحكمه بها، سنَةٌ كاملة من العناء وقلة القيمة، فلجأ مضطرًا إلى (ليلى) -الصغيرة دائمًا- التي قطعت طريق الأمل جذريًّا، أعادت له قيمته، وأفقدته جزءًا كبيرًا من مرحه لولا (ناعسة).

بعد الحادث وافق مجبرًا على التنازل لصالح الحاج (عوض الصباغ) صاحبه الذي بات يكرهُه أكثرَ من الشرطة نفسها، مع أنه يبدي خلافَ ما يبطن، هو الوحيد القادر الآن على فضح سرٍّ ربما يضر الكبير، وجود النصف لا يمنحه الفرصةَ لإدراك هذا، يشوش كل الأذهان، صحيحٌ أنه لم يكن مهمومًا بالانتقام، لكن الرغبةَ موجودة.

أعتقد أن عجزه هو سببُ توقفه عن وصف أجساد مرضاه من النساء في سهراته مع المقربين، والذين فقدهم تباعًا بعد أن فقدت جلساتُه لذتَها، تحولت أغلب آرائه إلى الهمس في أذن الحاج (عوض الصباع)، وصار أمينًا رغمًا عنه على أجساد الحريم.

أتذكر أن الضابط قال بوحشية، وهو يغادر: «**سنقطعه إلى نصفين حين نجده**».

هذا لا علاقة له بالنصف الذي نحكي عنه، لقد مرَّ على الحدث عشرون عامًا، وأما (فايز) فلم يرجع مثل (عبد الرحمن) تمامًا.

***

–21–

(نتشابه جميعًا عند الموت فقط لأننا نحمل وجوهًا، حين تتجمد الملامح نتشابه، ولأن النصفَ لا يمتلك وجهًا بدا مختلفًا جدًّا).

كانت (ليلى) –الصغيرة دائمًا– لم تزل تصدر أنينَها المسموع إلى خارج دارها، بينما تجمعوا رجالًا ونساءً في دار (هاشم المجبراتي)، استقر الحاج (عوض الصباغ) في المنتصف تمامًا حيث وُضِعَ أمامه المصحف، يمر كل منهم في تتابع ونظاميةٍ غير واعية، يضع كفَّه ويقسم على كتاب الله ألا يذكر أمر النصفِ في كلامه مطلقًا ولو مازحًا، استقروا على دفنه عند أبعد مكانٍ عن النجع وفي أعمق نقطةٍ يمكنهم الحفر لها، خافوا الخروج به إلى العالم الآخر فيلتفت العالم إليهم.

كان جلده قد بدأ يقشر كبصلةٍ قاربت على العفن، وضاعت لمعته إلى غير رجعة، تجاوزت الرائحة حدودَ الاحتمال، وحتى الأطفال أصحاب الأنوف البريئة تأففوا بشدةٍ فتوقفوا عن لعبهم، وبالطبع عن قياس أعضائهم ثم اختراع (فايز).

لم تكنْ فيه ثقوبٌ تحتاج إلى حشوها بالقطن، لذا اكتفوا برش الماء البارد الغزير فوقه، ولفوه في شريطٍ من البلاستيك المقوى، ذلك الذي يستخدمونه في تسقيفِ أسطح منازلهم اتقاءَ المطر.

لفوه مراتٍ عديدة، وكأنهم يقيدونه للموت كي لا ينهض من جديدٍ، ثم كفنوه بالقماش المعتاد لديهم، تلثموا جميعهم وساروا مسلوبي الملامح كما لو أن حلمهم الجمعي قد تحقَّق، يتقدمهم (ضاحي الحفار)،

كانوا يعلمون أن عضوه ليس في مكانه، قالت النساء أن كلبًا سرقه وهرب.

بدا كحنوط فرعوني حين حملوه إلى أبعد وأعمق مكان استطاعوا الوصول إليه، أو المكان الذي أقنعهم بأنه صار بعيدًا جدًّا.

لا يمكننا تجاهل العرافة التي أوعزت لـ(محمد القالع) الجد فعلته، ومن ثم اكتسب لقبه باتباعِ أوامرها حرفيًّا رغم أنه كان مزارعًا، ستكون حكايتها مفيدةً لباقي قصتنا، ولا بد من ذكر أن الجيل الأول قام بحرقها، بالأحرى تطوع جد (رضا الخشاب) لتنفيذ حكم أهل النجع، الذكور تحديدًا.

بعد حادثة الحمير الملتهبة بعامٍ وحيد أُصِيب الرجال بنوعٍ غير معلومٍ من الخمول التام، توقفت أعضاؤُهم عن الانتصاب تمامًا، ظلَّ الأمر سرًّا حتى باحَ واحدٌ لصاحبه، حكى مأساته فوجد مثلها عنده، وعند غيره وغيره، إنها عادة الأسرار تحتاج إلى بدايةٍ فقط لينفتح الباب، لم يجدوا حلًّا سوى العرافة، وقتها لم يكن سر (ليلى) -الصغيرة دائمًا- قد انكشف بعد، ولذلك لم تكنْ ضمن خياراتهم.

(لكل كلمةٍ دلالتها التخييلية مثل (عرافة)، حين ننطقها سنعتقد أنها عجوز دميمة، لا أدري لماذا هي دائمًا دميمة ومخيفة في الحقيقة؟ لكن وللعلم كانت شابةً شديدة الجاذبية، من ذلك النوع الذي يجعل من الملامح شيئًا ثانويًّا، لم يجرؤ أحدهم على الاقتراب منها، أو محاولة كسب ودها بشكلٍ خاص، وبالتالي ظلت وحيدةً إلى أن أحرقوها).

لجأوا إليها جماعةً، أعتقد أنها قصدت ذلك بشدةٍ، أخبروها

بعلَّتهم، وأخبرتهم بالشفاء: «**إنه سحر، وفك السحر بكف (ليلى) –الصغيرة دائمًا–**».

وقفوا صفًّا أمامها في غفلةٍ من النساء، وإلى جوارها العرافة الجذابة، كشفوا واحدًا بواحد عن أعضائهم، وكانت حين يلامس كفُّها عضو الرجل منهم ينتصبُ إلى الحد الأقصى، ينتفخ كبالونٍ قارب على الانفجار، وبالتأكيد يشفى من السحر.

كان جد (هاشم المجبراتي) يعشق النساء، بل وأكثر من كل نسله، حين ادَّعت العرافة المرض جاءوا إليها بطبيبهم المجازي، ظل يرتاد دارها لأشهر، وأعتقد أنكم تعرفون سبب مرضِها الآن، لقد اختارته من عضوه، شعرت به قبل أن يضاجعها مراتٍ كثيرة، كانت جلستُه مفرحة، يلهو فيها دائمًا بسيرة النساء ويفضح خباياهن...

باح بالسرِّ ذات مرة لجد (رضا الخشاب) ذلك الوقح المتهور، والذي فضحَ الأمر عند أول خلاف، أنكرَ جد (هاشم المجبراتي) وأنكرتِ العرافة، ضيَّقوا عليهما الخناق حتى بات اللقاء مستحيلًا، وقتها عاد السحر من جديد، فقد كل الذكور أعضاءهم ولم يشفعْ شيء، هاجوا وتجمعوا عند دار العرافة يسبقهم الغضب والحنق الشديدان، شعروا أن ذكورتهم بيد أنثى تعبث بها كيفما شاءت.

كانوا قد حكموا عليها بالفعل وعشقها جد (هاشم المجبراتي) فعليًّا، فقد حاول منعهم بكل الطرق الممكنة لدرجة اللجوء إلى العنف، وكانت في محاولته نهايته، شج رأس من فضح الأمر وأغرق وجهه في الدماء، لم يلتئمْ ذلك الجرح حتى مات، كان الجرح العميق يؤلم جد (رضا الخشاب) ويزيد ألمه مع الوقت، بعدها بقليل قالوا أن العرافة هي

السبب في انتحاره، ولم يذكروا شيئًا عن الجرح، تكالبوا على جد (هاشم المجبراتي) -الذي أصابه ما يشبه السعار وقتها- أمام أبنائه الصغار، لا مجال للتهاون فيما يخص ذكورتهم، ربطوه إلى حصانٍ عفي وأطلقوه للعراء، بالتأكيد مات، فلا أحد يتحمل السحل إلى ما لا نهاية...

(لا أعرف واحدًا عشق لدرجة السعار تلك غيره، ولا حتى (رضا الخشاب) الذي هو من نسله، ربما لأنها لم تكن قد خانته بعد)...

في الواقع جرى واحد من أبنائه خلفه، كان ابن العاشرة تقريبًا، وبالطبع لم يكن بقوة حصانٍ، لكنه أصر على ملاحقة الحصان إلى ما لا نهاية حتى غاب تمامًا عن عيونهم، عمومًا لم يرجع الحصان أبدًا، وأيضًا لم يرجع ابن (المجبراتي) الجد، حكموا عليها ونفَّذ جد (رضا الخشاب) حكمهم، أحرقها وهو يعشقها، لأنها ساحرةٌ أحرقوها حيةً ولأنه عشقها أحرقها بيده، صرخت حتى ملأ صراخُها المسافة بين الله وعبيده، كانت وجوههم تحمل شرًّا عجيبًا والنار تتأرجح على أجسادهم، لحظة موتها عادت الحياة إليهم من جديد ليتناسلوا ونصل إلى قصتنا.

أما ما يُروَى عن جد (رضا الخشاب) أنه رمى بنفسه إلى الهوة السحيقة عند الجرف ليوقف الألم، موتٌ وحيد مقابل موت في كل دقيقة كان خياره النهائي، حدث ذلك بعد حرقه للعرافة بأيام.

تلك العرافة لم يلزمها قبرٌ، احترقت بشكل عجيب مثل لفافة تبغ، لم تترك بعدها نسلًا وبالتالي لم تمتلك عينًا وسط قبورهم.

هناك جزءٌ بسيط أعتقد في أنهم لا يعرفونه، لقد نصحَت العرافة (محمد القالع) الجد لا لينجب بل لتراه عاريًا، عشقته فترةً طويلة في

سرها، حكت ما رأته إلى جدة (سعد الجزار)، حكته لها فقط، واعترفت بكل ما في صدرها، في نفس المرة التي ذهب إليها شاكرًا -كانت جذابةً، ومثيرةً وقت تريد- ضاجعها مرتين ثم توقف، مرتان غير كافيتين للشبع أو لخلق واقع، وعندما رفض الاستمرار أشعلت النارَ في بهائمه، أعتقد لأنها الشيء الذي أحبهُ بصدقٍ، لم تقصد قتله أبدًا لكنها قتلته بالفعل، وبطريقةٍ مهينة.

الحرق مقابل الدهس هذا أقرب إلى العدل، حققوا العدالة عن جهلٍ على ما يبدو.

أخذت الأرض تئنُّ وقت الحفر، سمعوا لها ما يشبه الصريخَ المكتوم ولم يتوقفوا، كانوا قد قرروا ألا يتوقفوا أبدًا.

بعد أن ساوى (ضاحي الحفار) الأرض، لم ينسوا قراءة ما تيسر من القرآن على القتيل، تركوه وحيدًا، عادوا إلى نجعهم ليجدوا الرائحة كما تركوها، لم ترحلْ مع النصف.

***

-22-

حين عادوا من دفنتهم كانت النسوة مجتمعاتٍ في دار (ليلى) -الصغيرة دائمًا- يحاولن تهدئتها بأية طريقةٍ، أصابتها حالةٌ هستيرية من الصراخ غير المبررة، مصحوبةً بانفعالاتٍ وحركات عشوائية شديدة التهور حد الخطورة، عرفن دائمًا أنها لا تموت، وخفن عليها تلك المرة بالذات لدرجة أنهن تعلقن بجسدها كي تثبت فقط.

وكان (مصطفى الأخنف) جالسًا القرفصاء في منتصف الساحة كالمجاذيب يتلو القرآن بصوته الجديد -المثير للسخرية والشفقة في آن واحد- دون انقطاع، ومن حوله الصغار يلهون ويدورون، على مسافة من كل هذا كان (عصام) ولد (مصطفى الأخنف) يبكي حال والده بحرقة، بينما (محمد) الابن الذي غفرَ كل شيءٍ يربت على ظهره في حنان بالغ، لم يكن قد جرَّب قهر الأب بعد.

رائحة، صراخ، ومجذوب، كلها إشاراتٌ لا تعني سوى أن الحكاية لم تنتهِ، بل وربما لم تبدأ بعد.

حملوا (مصطفى الأخنف) عنوةً بعد يأس الرجال من إقناعه بالنهوض معهم إلى داره، استقبلتهم زوجته (راوية) باللطم والنحيب الذي لم تنقطعْ عنه منذ بدأ زوجها، وتقبلوا مبيت بعض النساء إلى جوار (ليلى) الصغيرة دائمًا ولم تكن (أمينة) بينهن.

دخلَ (محمد) الأب داره، كانت أخته (نجية) ممدَّدةً على الأرض فلم يتأكد هل عادت لعقلها أم لا؟

كان يحمل شقاءَ خوفٍ مستمر لا نهاية واضحة له، وجهدَ منهكٍ لم يجربه قبلها، ما زالت بقية باقية من لذة لقاء زوجته الأخير فيه رغم أنه تطهر بالماء، إحساسه بالخوف من الفقد جديد، هذا أقرب إلى الحب منه لأي شعورٍ آخر، لم يتأكد قبل سؤال (أمينة) أن وجودها ضروري بمثل هذه الدرجة.

(أمينة) ليست المرأة التي ترفض الغفران، لطالما غفرت له أشياءَ أقلَّ من الخيانة: برودَ المشاعر أحيانًا، شيئًا من القسوة والتجاهل لبعض الوقت، إنها صافية جدًّا وشفيفة جدًّا جدًّا، يبدو أن هذا ما يجعلها خفيَّةً في أحيان كثيرة، خفيَّة وضرورية كالماء والهواء، وهو ما اكتشفه الزوج مؤخرًا.

– لم تجبني عن سؤالي يا أبا (محمد).

بالفعل لم يكن قد أجاب حتى اللقاء الأخير لم يكن إجابة، الاحتياج ليس إجابة للسؤال: «**خنتني أم لا؟**»

كان الوقت غير مناسبٍ للحوار على الإطلاق، لكن الصداع في رأسها يزداد يومًا بعد يوم، غليان أفكار دون تنفيس مآله للانفجار حتمًا، كانت تتحسس رأسَها كل يومٍ حتى أن شعورًا راودها بأن حجم الرأس صار أكبر من طبيعته، فحافظت على غطاء رأسها حتى عند النوم ولسنواتٍ تقارب الثمانية، ويبدو أنه هو السبب الذي جعل (ليلى) الصغيرة دائمًا تمسك برأسها وليس القلب.

عندما كررت كلامها بنفس اللهجة المُلحة علمَ أنه لا بد من إجابة قاطعة.

– ما الذي تريدين معرفته؟

– هل نمتَ مع (ناعسة) كالآخرين؟

أغمضت عينيها مع سؤالها، وأعتقد أنها أرادت أية إجابة لا تشبه (نعم)، فقد حملَ سؤالُها نبرةً ترجوه أن يكذبَ، لتجدَ مبررًا ولو وهميًّا للبقاء معه.

جلس إلى جوارها خائر القوى، واجه بعينيه عينيها السمراوين، إنها ترجوه أن يكذب، الكذب يكفي من تريد البقاء تمامًا.

– لا يا (أمينة)، لم أفعلها، أنا لا أشبه الآخرين.

مع نهاية جملته ارتمت بين ذراعيه في ضعفٍ بالغ وكأنها سبحت إليه من الضفة البعيدة جدًّا حتى أنهكتها السباحة، ثم ارتمت على شاطئه، أخذت تبكي وترجف، ساوى لها صدره وسقطت من عينه دمعةٌ ضعيفة.

كانت على يقينٍ من أنه يكذب، ويعلم جيدًا أنها تعرف هذا، لكن لا بأس، ستصدقه لأنها تريد للحياة أن تستمر بينهما لأنها تحبه، ربما اعتبرت كذبته وعدًا بعدم تكرار الخيانة، بكت لأنه بدا ضعيفًا وهي أبسط من أن تكسره أو أن تطمع في أكثر من كذبة.

حين دخل (محمد) الابن عليهما كان يحمل دموعًا بعينيه، لكنه عرفَ على الفور من ابتسامة أمه الباكية أن موعد مجيئه لم يكن مناسبًا وتأكد حين نهضت أمه متحرجةً، تستر مشاعرها الفاضحة وهي تتصنع السعادة.

– سأجهز لكما الطعام.

بدا واضحًا أنها تنسحب من المشهد، بينما بقعة الماء في عين والده لم تكن قد جفت بعد، زاد ألم رأسها، لم تُظهر لهما لكنها تضاءلت في أحد الأركان بعد احتجابها، لحظات مؤلمة وسريعة ما جعلها تختبر حجم رأسها من جديد.

جلس إلى جوار أبيه صامتًا وهادئًا، البكاء صار معتادًا في النجع له أسبوع تقريبًا، والسؤال عن الأسباب سيكون أمرًا سخيفًا.

***

–23–

ظل صوت (ليلى) –الصغيرة دائمًا– ينعق في النجع دونما انقطاعٍ حتى وإن خفَتَ على فترات، لذا كان نومهم مضطربًا وقلقًا، في عرفهم هي ليلة سوداء، ولم يكن صباحهم الذي استيقظ أبكر من عادته أفضل منها.

اختلاط نباح الكلاب بصريخ (ليلى) خلقَ ضجيجًا لا يمكن تفاديه ولو بقطع الآذان، نباحٌ مسعور وصراخٌ أجبرا الجميع على الخروج من مكامنهم، كان الهواء جافًّا ومعبأً بنفس الرائحة المنتنة، حين فتحوا أبوابهم تلاقت العيون من خلف اللثم، خرجوا في آنٍ واحد كأنه استدعاء، بالفعل نادتهم الكلاب إلى الساحة ليجدوا النصف في مركزها تمامًا تحيط به الكلاب وتنبح باتجاه السماء حملت عيونها نوعًا غير مألوف من الشراسة، بعد أن تجمع أهل النجع انطلقت الكلاب بعيدًا، يبدو أن مهمتهم قد انتهت، لقد سلمت الطرد إلى أصحابه.

حفرت الكلاب الأرض وأخرجت النصف من جديد، جرجروه –وهذا واضح من أجزاء الشريط البلاستيكي المنهوشة– إلى وسطهم من جديد، عندما اقتربوا وجدوا عضوه ملقى إلى جواره، لقد سلموه كاملًا.

– اللعنة على الكلاب.

قالها الحاج (عوض الصباغ) وهو يتأمل مصيبتَهم الكبرى تنبت مرةً ثانية، لم تفعلها الكلاب حتى مع جدة (ناعسة)، ولم يظهر اهتمامها بالنصف من قبل، بالطبع جال بخاطر كل الواقفين أن يقتلوا الكلاب

كلها جزاءً لفعلتها، لكن الكلاب علمت أن الفكرة ستكون مطروحةً، فرت قبل أن ينفذ أحدهم حكمه، تواطأت كل مكونات بيئتهم في خلق ذلك الكابوس اللامنتهي.

لحظة، هناك حكاية لا بد من معرفتها قبل الاستمرار، من بين كل حكاياتهم القديمة هناك واحدةٌ فقط لا شك فيها، لأن أثرها ممتدٌّ حتى اللحظة، وأعتقد أن شيئًا لن يمحوه مستقبلًا.

جدة (ناعسة) بحكم نظريات الفقد والاكتساب كانت أجمل من حفيدتها بكثير، الفقد دائمًا من نصيب الأنثى (الأم) لصالح بعض الذكورة، وهي نصيب الأب.

كانت امرأةً طيبة بحق، في رقة الفراشات البيضاء، تشبه السيدة (مريم)، سأفضل منحها اسم (مريم) أحيانًا لأن اسمها غائب عن ذهني تمامًا، ولا أعتقد أن لاسمها الحقيقي فائدة في الحكاية.

هي من أسرة (مأمون الشيخ) قبل أن يحصل على لقب (الأخنف)، لأنها جميلة جدًّا طال صبرها على الزواج، هناك نوع من البشر يخشى الجمال قدر ما يخشى القبح، ومرجعه هو الخوف من ثقة المرأة في سحرها، في النهاية تزوج بها كبير أسرة (الصباغ)، لم ينجب من زوجته الأولى لسنوات وكانت (مريم) لتقبل بأقل من هذا، التعددية عندهم مألوفة خصوصًا في الأجيال القديمة، غير المألوف فقط أن تكون الثانية عذراء جميلة وطيبة مثل (مريم)، لكنه أيضًا مقبول ومبرَّر.

حملت منه بعد عامين بالتمام والكمال، أنجبَت ولدًا، أخفت عورته عن الجميع، وضحَ ذلك مع رفضها التام لمساعدة الأخريات

في تنظيف ولدها، القصة طبيعيةٌ حتى الآن، عيب الإنجاب دائمًا من المرأة في عرف مثل هذه المجتمعات، فرحوا وهللوا ولم تتغير طباعها، ظلت (مريمية) كما هي.

لم تنجب منه لستِّ سنوات تالية، عاش منها زوجها النصف تقريبًا مريضًا مقعدًا، للأمانة زوجتاه لم تقصرا في حقه أبدًا، عاشتا تحت قدميه كما يقولون.

جاءته استفاقة ما قبل الموت، تلك الساعة التي يبدو فيها الميت حيًّا، كانتا عند رأسه، شعرتا بعودته حين طلب من زوجته الأولى أن تحضر طعامًا، أراد الاختلاء بـ(مريم) على ما يبدو، طلبها وأجابته، لم تكن تعلم أنها تودعه.

بالتأكيد رأتهما زوجته الأولى، لأن ما فعلته بعدها كان شديد القسوة والفحش أيضًا.

تأذَّت بشدة لأنه لم يخترها رغم أنها أحبت ولده الذي صار ولدها فيما بعد، سربت أمر جماع زوجها الأخير لأمها، أضافت أنه هو السبب الأكيد في موته، قتلته (مريم) حين طاوعته ولم تراعِ جسده المتهدِّم، كلفتها عكارة المشاعر ونظرات الاتهام انتقالًا إلى دار أهلها، نفيٌ صغيرٌ بين من يهتمون لأمرها، بعد ثلاثة أشهر أو أقل قليلًا انتفخت بطنها، لم يمنحوها مبرر الصدفة المحضة، مضاجعةُ ميتٍ غير كافية للحمل، هذا إن كانت سنواتٌ طويلة لم تكف لهذا.

كانت بذرة الرجل حيةً، وكان ذلك مبررًا لقتلها بيد أسرة (مأمون الشيخ) التي تعلمهم القرآن، العجيب أنها لم تدفع التهمة عن نفسها،

لنقل إنها صامت عن الكلام، فقط بكت خوفًا على ولديها الذي جاء والذي لم يأتِ مطلقًا، رفضوا أن تُدفَن في مقابرهم فجسدها سيدنس العين الذي يسكنه، دفنوها في مكان بعيد منعزلٍ، إنه نفي ما بعد الموت تقريبًا، ثم تكفلت الزوجة الثانية بولدها المتبقي.

كلفهم مكان قبرها بقعةً كبيرة من الأرض كانت صالحةً للزراعة ذات يوم، أجدبت الأرض المحيطة بالقبر تدريجيًّا وماتت، ربما لم يشعروا بقيمة ما فعلوه، وشعرت به الأجيال التالية حين زاد العدد وصاروا بحاجةٍ للتوسع في زراعتهم، الأرض المجدبة كلفتهم الغرب تقريبًا، اتجاهٌ كامل من اتجاهاتهم الأربعة –مع مراعاة طبيعة المكان نفسه– كلفة باهظة جدًّا لا يسهل التفكير في تكرارها ولو بعد حين.

البعض قال: «**ظلمناها**» والغالبية استقر في ضميرها أن أرضهم لا تحب القبور، مدافنهم كانت منحةً أولى ولا ينبغي تجاوزها.

لا يمكن الفصل بين الحكاية المؤكدة وتلك الأعاجيب التي يتوارثها الناس، يخلقون بها قصصًا جميلة، لو أنها تتوقف عند حدود الخيال لما تشوش الماضي دائمًا.

عددٌ محدود قال أن جدة (ناعسة) ظهرت لهم بعد سنوات من مقتلها، وامتدادُ الجدب إلى مداه، بالأحرى بعد أن قاموا بزيارتها، ذكرتُ أن البعض قال: «**ظلمناها**» اشتركوا جميعهم في الدخول إلى الأرض الجدباء، من زاروها قالوا أنهم يسمعونها تغني، وأن أغنيتها عالقة بآذانهم، ما يعني أنهم لم يناموا لفترةٍ طويلة جدًّا، وبالطبع هذا يؤدي للجنون أو توقف العقل على الأقل، المثير في الأمر أنهم رددوا أغنيةً بعينها، أول من جُنَّت كانت الزوجة الأولى لزوجها، تبعها كل من زاروها،

أربعة كلهم من أبناء (الحفار) الأول، وهم الذين حفروا قبرها رغمًا عن إرادة أرضهم، لم يعيشوا طويلًا، بالطبع لم تظهر لمن لم يدخلوا إلى الأرض، اعتبروا مكانها محرمًا، واعتبرته (مريم) عهدًا معهم ومع الأجيال التالية.

وبرغم سذاجة الحكاية إلا أن عددًا بسيطًا وعلى فترات متباعدة وقع في فخ الفضول أو الخطأ، كلهم جُنُّوا، وآخرهم ابن (مصطفى الأخنف) الكبير.

كانت لحظةً مناسبة لـ(هاشم المجبراتي) كي يؤذي الكبير، لم يكن مهمومًا كما ذكرت قبلًا بالانتقام، لكن اللحظة جاءت مناسبة جدًّا: «**أعتقد أن هناك حلًّا أسهل من كل هذا، ندفنه في عين عائلة (الصباغ)، أعتقد بعد كل ما حدث، ويحدث لا بد من حلٍّ قاطع، الكبير حدثني فيه من قبل**».

قالها (هاشم المجبراتي) بصوتٍ مسموع أقرب إلى الذكورة.

(أحيانًا نحب أو نكره بدون وعيٍ كامل، نحب دون أن نتألم كما حدث مع (محمد) الأب تجاه (ناعسة) ونؤذي دون أن نكره، في الحالتين تبقى الإجابة واحدة: «**لا أدري لماذا؟**» سأوضح هذه المقطوعة الأخيرة أكثر برواية ما حدث بعد كلمات (هاشم المجبراتي) الأخيرة).

كانت لحظةً شديدة القسوة على الحاج (عوض الصباغ)، لقد نطق (هاشم المجبراتي) كلماته بلهجة العليم بالأمور، وصدَّق (عوض الصباغ) أنه بالفعل يعلم كل شيءٍ، حين تعلقت العيون بجلبابه كان لم يزل كبيرهم، حاول التظاهر بشيء من الثبات: «**عين عائلة من يا**

(هاشم)؟» سأل وصورته تهتز.

صدمه جمود (هاشم المجبراتي) وهو يقول: **«احكِ لهم عن أخيك يا حاج، أم أحكي أنا؟»**

هنا آمن الحاج (عوض الصباغ) أن (هاشم) يعرف كل شيء وأنه عزمَ ألا يتوقف، انهار سريعًا أسرع من المتوقع...

(أحيانًا يكون الشيء الناقص كي تكتمل المصيبة رد الفعل فقط، وغالبًا نحن نخلق أغلبَ مصائبنا).

جثا على ركبتيه في وهن، انتظروه أن ينطق، أما هو فانخرط في بكاءٍ عميق، الموقف مأساوي بالفعل لكنه لا يبرر بكاءَ الكبير الذي وضحَ أنه يكتم سرًّا عظيمًا، هذه النهنهات دائمًا ما يتبعها اعتراف خطير.

- نعم كان خروج أخي نفيًا وليس رحيلًا، تريدون معرفة السبب؟

كشفَ عن عضوه أمامهم، ظهرَ كثمرة بازلاء ناضجة رفيعًا مقوَّسًا وغير كافٍ أبدًا، تحرجت النسا، وانصرف أكثرهن، بينما هرولت زوجته آخذةً بطرف جلبابه لتستره وتمنعه من الانفضاح، دفعها بقسوة مرَّغتْها في التراب، أعاد كشف عضوه قائلًا: **«هذا هو السبب، نعم السبب الوحيد».**

لم يقصد (هاشم المجبراتي) كل هذا، كان أخو الحاج (عوض الصباغ) صديقه ويعرف فقط أن عضوه كان كبيرًا جدًّا، ولهذا دلالة ستكون واضحة للجميع، لم يحك له كلمةً واحدة مما ذكر أخوه الكبير، بالفعل حمل له غلًّا، أراد له المعاناة بأن يجبره على فعلةٍ ما يستعيد بها

جزءًا من مفقوداته مقابل خلاصهم، وليس بمثل هذه الطريقة أبدًا، أما تلك الصداقة بالذات كانت السبب في كل ما فعله الحاج (عوض الصباغ) الذي تابعَ:

- كنت أحسده منذ الصغر، رغم أني لا أكرهه، كان عضوه كبيرًا جدًّا، لكنه ليس بمثل ذلك الحجم أبدًا، وعندما تزوجت خفت، صار لي زوجة، وسيصير له بالتأكيد، النساء لا يتوقفن عن الحديث، طلبت منه الرحيل، أو أجبرته على ذلك، كنت أعرف أن الرحيل بلا عودة، حين رأيت النصف للوهلة الأولى، شعرت أنه مني، مثل أي واحد منكم، جاء ليعاتب، أو لينتقم، لكني الآن أقسم أنه ليس منا جميعًا، إنه بلاء، كلكم تعرفون هذا، لا يمكن أن ندفنه في مقابرنا، إنه غريب.

كان اعترافًا عجيبًا وفي غير موضعه، من الممكن مناقشة حجم العضو لرجلٍ باتت ذكراه ضبابيةً بدون كل ما حدث، يعانون جميعهم ضغطًا رهيبًا لهم أسبوع، تدهسهم الأحداث، واليوم يقع كبيرهم ببساطة شديدة ما زاد من إرادتهم في التخلص من النصف دونما التفات لأي من آثاره، فقط التخلص منه وهذا كل شيء، بدا واضحًا أن النصف يقاوم دفنه وأنه سيقاوم حتى وإن هلك النجع، أما (هاشم المجبراتي) فشعر بأسى شديدٍ تجاه صاحبه الذي يكرهه، لكنه لم يكرهه إلى ذلك الحد.

***

-24-

اعتزلهم (محمد) الأب منذ قرروا دفن النصف، بالتحديد عند باب (ليلى) -الصغيرة دائمًا- لذا لم يحضر لحظة انهيار الحاج (عوض الصباغ)، حكى له ولده كل شيءٍ بالتفصيل، رغم استماعه للحكاية باهتمام بالغ إلا أنه منع ولده من الخروج إلى أن ينتهي الأمر.

(غالبًا ما ندرك الحقيقة في الوقت الذي لا يجدي معه تغيير فنستسلم ويصير الإيمان بأنه لا شيء حقيقيٌّ هو البديل المتاح، كان ذلك هو سر انعزال (محمد) الأب، وبرغم إنكاره لواقعهم لم يفلت بدون ثمن).

بدأ يشعر أن (أمينة) ستُجَن لكثرة نظرها في المرآة وتحسسها الدائم لجانبي رأسها، الأعجب هو عدم نزعها لغطاء رأسها منذ أيام.

- دخلتِ الأرض المحرمة؟

سأل زوجته مازحًا، حين توارد إلى مسامعهم ضجيجٌ بالساحة مختلط بصريخ رجال هبَّ واقفًا ولم ينتظر حكايات ولده، أشار إليهم ألا يبرحوا الدار مهما حدث.

كانوا ثلاثة رجال، من بينهم (سعد الجزار) ملطخين بالدماء، ويبدو أن الكلاب نهشتهم بضراوة، لم تظهر على وجوه أهل النجع أمارات الدهشة، لقد آمنوا بمصيبتهم، لن يكون التخلص من هذا النصف سهلًا أبدًا، الرائحة الكاسية تدلل على أن الدفنَ ليس حلًّا، رفضته الأرض مرةً ومتوقَّع جدًّا أن ترفضه مرةً أخرى، الأرض لا يسهل إقناعها،

وثلاثة رجال لا يشكلون حمايةً أكيدة للقبر، الكلاب تتوحش فيما يخص النصف، وفكرة حماية القبر لأيام بعد الدفن لم تكن مقنعةً لكن لا مفر من أن يفعلوا شيئًا ما، باتوا يؤمنون بأن عيون مقابرهم نفسها لن تكفيهم شره، حكايات الثلاثة عن تلك الصورة التي تلبست الكلاب مخيفةٌ حد الفزع، بينما أخذ (هاشم المجبراتي) يضمد جروح اثنين منهم -الثالث (سعد الجزار) جرى دون مقاومة فاحتفظ بجسده سليمًا- كل ما فعلوه أن وقفوا ينتظرون عودة النصف، قضوا النهار كله واقفين، بالفعل كان مشهدًا يستحق الرؤية، الكلاب سحبت النصف إليهم في بطء وتحفز، لأول مرة يرون الكلاب بمثل تلك الجدية وذلك السعار.

كانت السماء قد أظلمت تقريبًا، أضاءوا مشاعلهم فصار المشهد مهابًا، تراقُص اللهب مع لمعة عيون الكلاب، لحم الشفة المتراجع حد تعرية الفك العلوي تمامًا يحولها إلى وحوشٍ مسننة، بعد وضع النصف في مكانه نبحت في شراسةٍ وهي تتراجع، وكأنما تقول: «**نحن موجودون بالقرب**».

لقد عانى النصف من السحل، حتى أن أجزاء من اللحم تمزَّعت وانكشفت من خلال الغطاء المتهتك، إذا كان للنصف دلالة ما عند الكلاب فلماذا عاملت جسده بتلك الفظاعة؟

كان (محمد) الأب مستقرًّا في جهة تجعله وحيدًا يتابعهم من بعيد، لم يهتموا لوجوده في الحقيقة، وكان رأس (رضا الخشاب) قد تقيح بشكلٍ لافت وخطير، أخبره (هاشم المجبراتي) بذلك في اليوم التالي لشجه وهو يطهره له، أيضًا لم يمتلك مبررًا مقبولًا لذلك القيح.

لم تتوقف (ليلى) -الصغيرة دائمًا- عن النحيب، يبدو أن حنجرتها

لا تموت مثلها، مع نعيقها كان رأس (رضا الخشاب) يلتهب ويفور.

- أخرسوا (ليلى).

صرخ (موسى البقال) بعد أن فقد تماسكه، قالها دون نيةٍ حقيقية في قتلها، نحيبها بالفعل كان سببًا في تشتيت انتباه الجميع مثل زحام في رؤوسهم، ضجيجٌ مستمر إلى الجنون، قالها في أسوأ توقيتٍ ممكن، فقط لأنه وفي ذات لحظة نطقه لجملته، كان (رضا الخشاب) على وشك أن يسقط ميتًا أو ينفجر من الألم الذي برأسه، نهض من بينهم مهتاجًا: **«هي ابنة الكلب التي توشوش للكلاب».**

حدقوا فيه ذاهلين، ليس لأن الكلمات خرجت من فمٍ لا يفكر بل لأنها منطقية كأنهم تذكروا الرابط بين (ليلى) -الصغيرة دائمًا- والكلاب لتوهم.

- كيف لم ننتبه لهذا؟

قالها (سعد الجزار) بجديةٍ بالغة، تجادلوا حول الأمر، والنحيب يعلو ويعلو، بدا كنحيبها الأخير، صموا آذانهم وهم يتجادلون، ربما أرادت استفزازهم بما يفوق الاحتمال، تلك العجيبة التي لا تموت ولا تكبر، هي الوحيدة التي تحدث كلابهم حتى ليظن الشاهد أنهم يأتمرون بأمرها، وقد تؤكد قسوة الكلاب مع النصف فكرة أنها مأمورة خالية من الشعور.

لطالما رأوا الكلاب تهز رأسها مطيعةً في مقابل الهمس، إنها تمنعهم دفن النصف عامدةً، وربما تكون هي التي جاءت به إليهم، كانوا بحاجةٍ لتصديق ذلك فلا أفكار أخرى على الإطلاق.

تجاوز الالتهاب في رأس (رضا الخشاب) حرارة الجدال بينهم، استسلم لطبيعته الحيوانية ودخل دارها في ثورةٍ عارمة جرفت باب الدار، جرجرها إلى الساحة من بين امرأتين إحداهما (راوية) زوجة (مصطفى الأخنف)، ألقى بها إلى جوار النصف في غلظةٍ، حاولت النهوض أكثر من مرةٍ والتعلق برأس (رضا الخشاب) لكنه منعها، لم يرغب بممارسة لعبة الموت والحياة معها.

شل حركة جسدها الهزيل بيدٍ واحدة منعتها النهوض، وثبتت عينيها على النصف تمامًا.

- توقفي عن النحيب وأخبرينا ماذا يحدث؟

قالها (رضا الخشاب) في غلٍّ واضح، حمَّلها كل المأساة دونما دليل.

قاوم (محمد) الأب رغبته في الانحياز للصغيرة دائمًا، كان على يقينٍ أن الأسوأ قادم لا ريب، حاول قدر طاقته عدم المشاركة فيه لأنه سيحدث رغمًا عن إرادتهم جميعًا.

كانت عين (ليلى) -الصغيرة دائمًا- تفقد دائرتها السمراء كلما واجهت بهما (رضا الخشاب)، ولم تتوقف عن النحيب، نظرت إليه متحديةً تستفزه إلى أقصى درجة ربما ليقتلها مثلًا.

- لن نؤذيكِ يا (ليلى)، أظهري أية علامةٍ للنجاة من هذا النصف.

حدثها (سعد الجزار) محاولًا تهدئتها، فزادت من النحيب.

- انطقي يا (ليلى)، أنتِ الوحيدة التي توشوش الكلاب!

ما إن ذكر (سعد الجزار) سيرة الكلاب حتى عادت من جديدٍ من ظهر (رضا الخشاب)، بدت مستعدةً لنهشه حيًّا، ورأى هو الرغبة العارمة في عيونها فأحاط الجسد الصغير بذراعه، رفعها إلى مستوى صدره يستتر بها، وانتشل أقرب شعلة إليه من يد حاملها، هوَّش الكلاب بالنار...

«سأحرقها» لم يظهر على وجه الكلاب نية التراجع... **«قلت سأحرقها»**، رددها وهو ينحسر ببطءٍ مذعور، لم تكن ملامحه لحظتها لتردع طفلًا صغيرًا، مدَّت (ليلى) الصغيرة دائمًا كلتي يديها نحو (محمد) الأب الواقف وحيدًا منذ خروجه إليهم، أراد أن يفلتها من يد (رضا الخشاب)، وأراد للأحداث أن تمر أبعد من قدميه، توقفت الكلاب عن ادعاء الشراسة وهجمت بالفعل على (رضا الخشاب) تنهش لحمه أمامهم...

حالة الذعر أفقدته التناغم بين أجزائه، لمست النار التي في يده (ليلى) –الصغيرة دائمًا– فقط لمسةً ربما لا تؤذي في العادة، اشتعل جسدها تمامًا بمجرد أن طالتها النار، توهجت وكأنها مغمورة منذ أيام في الكحول، مزقت الكلاب لحم الرجل واشتعلت (ليلى) –الصغيرة دائمًا– كيفما اشتعلت العرافة، جرت بينهم وصرخت بنفس الطريقة التي رأوها من قبل في دارها، أعتقد أنها انتظرت تلك اللحظة بشغف كبيرٍ لأن ملامحها لم تكن حزينة أبدًا، مثل لفافة تبغ محترقةٍ تحولت إلى رماد...

احتاجت ثوان ليتم الأمر عندها انطفأت الكلاب هدأت تمامًا، استعادت طبيعتها الأليفة من جديد، وارى كل كلب ذيله بين فخذيه، وحمل في عينيه نظرةً لا تخيف على الإطلاق، انسحبت الكلاب منكرةً

وجودها السابق.

كانت لحظة ثباتٍ تام لولا صراخ (رضا الخشاب) الذي لم يستوعب أنه نجا ببعض حياة وأن النهش قد توقف وصوت بكاء (محمد) الأب الذي سمعوه للمرة الأولى، لم يكن سهلًا على (أمينة) أن تسمع صوت صراخ (ليلى) –الصغيرة دائمًا– وتتجاهله، وجدت زوجها بتلك الحالة، بكى أكثر عندما احتضنته، وبدأت معه بكاءها عليه وعلى الصغيرة.

تأملوا كتلة الرماد المتماسكة والتي تعبر مجازًا عن (ليلى) الصغيرة دائمًا. كان الجو خانقًا في غياب الريح وحضور الرائحة المنتنة، تحتاج فقط نفخة هواء لتنتهي، لكنها تحركت أمامهم كإله للرماد، تحركت نحو (محمد) الأب الذي لهاه خوفه عن البكاء، مسحت على رأسه وارتعد للمستها، ثم هبت الريح.

رأوا كل ما حدث في صمت، فقط (راوية) زوجة (مصطفى الأخنف) تساءلت: **«ماذا كان بينك وبينها يا ابن (القالع)؟»**

***

لا أملك سببًا وجيهًا لتأجيل حكاية جد (ضاحي الحفار) كل هذا الوقت، وأعتقد أن الوقت المناسب لم يفت على الأقل، في الحقيقة كانت له أسطورته الخاصة، الجميع يعلمون أن (الحفار) الأول هو الذي أنشأ مقابرهم، قالوا إن الأرض كانت طريةً أمام جاروفه، طاوعته غالبًا إلا في مرته الأخيرة، تلك المرة التي فقدت بها عائلة (الحفار) طبيعة عملها.

حفرَ قبرًا مزدوجًا لكل عائلةٍ، واحد يخص الرجال والثاني للنساء،

ولم يزد عددها من بعد قبره الأخير، لذا تحولت عائلة (الحفار) إلى مجرد العناية بأجساد الموتى وإطعامهم القبور.

عمومًا كانت الحياة قد أضاعت النجع من الغرباء، أو لنقل أن نصابهم قد اكتمل عند لحظةٍ معينة، كان (الحفار) الأول كثير العيال، بلغ عددهم تسعةً رغم موته في سنٍّ أقرب من العادي.

اشتغل الذكور في حرث الأرض للاستمرار، هذا بالإضافة إلى عنايتهم بالأجساد المنتهية والتي تأتي على فتراتٍ متباعدة ومتناسبة مع كثافتهم المحدودة.

حكى (الحفار) الأول لصديقه وقتها، وهو (محمد القالع) الأكبر أن شيئًا غريبًا بالأرض يقوده أثناء الحفر وكأنها تلغي إرادته، كانت القبور أعمق مما ينبغي، وحين سأله (محمد القالع) الأكبر عن السبب قال (الحفار): «**لا أدري، أبدأ الحفر ولا أتوقف حتى تردني الأرض**».

لم يكن يعلم أن ذلك العمق الإضافي منحة لأن عدد القبور لن يتحرك إلى الأبد.

حين بدأ في حفر قبر عائلته ظل يحفر ويحفر، ويحفر حتى اختفى عن عين أكبر ذكوره، ناداه الولد: «**هذا يكفي يا أبي**».

لم يجبه بل استمر يحفر ويحفر، صار القبر أعمق من طول (الحفار) الأول بمرتين، عندما ردته الأرض لم يستطع الخروج، ظل يصرخ ويصرخ ولده، أخرجه (محمد القالع) الأكبر في وجود أبنائه مستعينًا بحبل غليظ ربطه إلى أتانه المقربة، لم تتوقف رجفته ثلاث ليالٍ، أرسل بعدها في طلب صاحبه.

- **أرضنا لا تحب القبوريا (محمد).**

قالها وفي الليلة التالية دفن صاحبه الذي دهسته الحمير، ولأنه صاحبُه رعى ولده الوحيد (محمد) بين أولاده لفترةٍ، وحافظ له على لقبه.

جاء وقت القبر الأخير بعد سنوات: قبر (مريم) الطيبة، عاندته الأرض فأمسك عن المحاولة، حاولوا معه بألف طريقة ورفض قطعيًّا، ردد دائمًا: «**أرضنا لا تحب القبور**».

تطوع ذكوره الأربعة، كان لديه مثلهم من البنات، وولد حملته بطن زوجته قبل موته بقليلٍ، حفروا الأرض عنوةً وفي غياب أبيهم، (من يحرث الأرض يحفرها)... أغوتهم زوجة (الصباغ) الكبير بالمال، أحست بذنبها فحرصت على دفن ضحيتها، قال كبيرهم لأبيه معترفًا بذنبه: «**ردتني الأرض مرارًا ولم أطاوعها، سمعتها تئن**».

يبدو أنهم شعروا بشيءٍ تجاه (مريم)، أو حدثتهم الأرض أثناء الدفن فعادوا بعد فترةٍ يعتذرون.

هؤلاء هم الأربعة الذين أُصيبُوا بالجنون مع زوجة (الصباغ) الكبير، ماتوا جميعُهم في يوم واحد، عندها علمَ (الحفار) الأول لِمَ كان القبر عميقًا؟

نزل إلى العمق، تناولهم واحدًا بواحدٍ، رتبهم حسب العمر، بدأ بالأكبر، رغم ذلك ظل القبر أوسع من الجثث كلها، نام فوقهم وظنوا أنه يودعهم، وقت حاولوا سحبه إلى أعلى وجدوه قد رحل معهم.

لم يستطيعوا إفلات ذراعيه من أجساد أبنائه، أغلقوا القبر عليهم

دون أن يغسلوه أو يكفنوه، حاولت إحدى بناته النزول إليه، سلبها مشهد أبيها كل الوعي، من يغسِّل موتاهم لم يغسله أحد، ومنعها زوجها (محمد محمد القالع)، نعم فقد زوجه (الحفار) الأول بابنته قبلها بقليل.

ظلت جملته تتردد على ألسنتهم: «**أرضنا لا تحب القبور**» لفترة ليست بالقصيرة.

واستعادوا نفس الجملة من جديد حين وجدوا النصف.

***

ما كانت فعلتهم لتمرَّ على خيرٍ أبدًا، تواروا في ديارهم خجلًا وملًّا، فقدوا أية رغبةٍ في التفاعل مع ما يجري، لم يعد أمامهم سوى الاستسلام، تركوا النصف وحيدًا مهملًا في مركز الساحة كبهيمة نافقة، الاهتمام بأنسنة الأفعال صار ضربًا من السخف، سيختفي يومًا ما، وما لا تأكله الأرض تذروه الرياح، عليهم فقط إفساح الطريق للزمن دونما إعاقة.

أغلقَ (محمد) الأب باب داره في إحكامٍ واضح كأنه يسجن أهل بيته أو يعزلهم عما سيحدث، ساق كل بهائمِه: الثلاثةِ حمير والجاموسةِ التي أوشكت أن تضع وليدًا، ساقهم إلى الحد القريب من الأرض المنزرعة، صفهم أمام جيش أعواد الذرة، ظهر الارتياب على البهائم حين تشبعت أجسادها بالكيروسين، أدركت ذلك بأنوفِها وعبَّرت بحركاتٍ ثائرة، وغاضبة عن خوفها، الحيواناتُ تعرف صاحبها جيدًا و(محمد) الأب لم يعد يشبه الذي عرفوه.

استرجع لحظة أوثقوه من قدميه إلى حصان (عوض الصباغ)،

صدَّق (راوية) زوجة (مصطفى الأخنف) التي حمَّلته أكثر من جرمه، لم تعلم شيئًا عن رغبة زوجها في ممارسة القتل، فكان منطقيًّا أن تصب عليه لعنتها كاملةً وتحمله ذنب ما صار إليه زوجها –محفظ القرآن– لم يشك لحظةً أنها ستطلقُ الحصانَ بالفعل، إنه وإن نجا من السحل سوف يعيش بعاهة مخيفة ودائمة.

كانوا غاضبين حد العماء، حتى أن الحاج (عوض الصباغ) وتحت جنون الغضب سحبَ حصانَه ليربط إليه النصف ويطلقه إلى اللانهاية، أما وجود (محمد) الأب في محيط فارغٍ جعله مرقوبًا، خيار العزلة لم يفصله عنهم بل جذبهم نحوه، إشارة (ليلى) –الصغيرة دائمًا– إليه، احتراقها ثم تحرك غبارها نحوه، لمستها لرأسه، دارت الدنيا حوله في حين كان يظن أنه بعيد، بعيد جدًّا.

على أية حال لم يحب (محمد) الأب بهائمه عكس جده الأكبر، هاجسٌ بداخله يخبره دائمًا أنها ستخونه فقرر خيانتَها استباقًا، لم يحب أيضًا كونه مزارعًا، رجفَ جسدُه من الغضب والحقد، استخدم الشعلة التي بيده، ودَّ لو يقدرُ على استخدام تلك التي بصدره.

انطلقت البهائم مذعورةً وملتهبة إلى حيث وجَّهَها بين أعواد الذرة، لم يأبه واحدٌ من أهل النجع لحريق أرضهم، ربما يجعل الحريق لمعاناتهم نهايةً، يمكن القول أنهم ملوا دهسَ الأحداث لهم وقسوتها فتوقفوا عن المقاومة.

أجاب (محمد) الأب على سؤالهم ألف مرة: «**لماذا جلبَت (ليلى) النصف إلى هنا؟**»

كررها ألفَ مرة، وبكل طريقةٍ ممكنة: بالمقاومة، بالغضب، بالاستسلام، بالخوف، وبالذعر أيضًا: «**لا أعرف أي شيء**».

هو من وجد النصف أولًا وأقربهم للصغيرة دائمًا، اختصته (ليلى) بإشارتها حتى أنها لم تنسَ وداعه بعد النهاية.

هذا ملخَّص ما قالته (راوية) بنبرةٍ انتقامية واضحة، مشهد التحامه بزوجته وولده كان مثاليًّا إلى الدرجة التي ضاعفت إحساسها بمصيبتها في زوجها، أضاف (سعد الجزار) إلى كلامها معلومة أن (محمد) الأب هو الوحيد الذي رفض الكشف عن عضوهِ من بين كل الرجال، وخجله لم يحملِ القيمة التي قد تبرر مخالفته لجماعته.

- **لا أعرف أي شيءٍ.**

كان صادقًا جدًّا، وأصرت (راوية) على الاستمرار في كسره إلى الدرجة القصوى، لم يمنعها ذعره أو فزع ولده الصغير، لحظة الانكسار التي أخبرتكم عنها من قبل.

كونه بال على نفسه لم يضف كثيرًا، لا يُعتبَر حدثًا مميزًا لأنهم رأوه ذات مرةٍ فاتت عليها عشرون سنة، بدايةً من المقاومة وجريه إلى فأسه، ثم التكالب عليه وطرحه في التراب، توثيق قدميه إلى حصانٍ عفي؛ إن عرفَ طريقه فلن يعود أبدًا، كل هذا ليغير إجابته، أرادوا الحصول على إجابةٍ أخرى بأي ثمن حتى ولو بال على نفسه، إنه آخر أسئلتهم وآخر مسؤول.

في الحقيقة انتظرته (راوية) ليفعلها، صدقته من الوهلة الأولى، وأصرت على الانتقام لزوجها مستغلةً غياب الوعي الجمعي.

بعدها حلوا وثاقه ما كانوا ليطلقوا الحصان أبدًا، وجوههم الممسوخة لحظتها لم تكن كافيةً للتنفيذ وصدَّقهم، أصابته رجفةٌ شديدة، كان يشبه (هاشم المجبراتي) كثيرًا، استمرت الرجفة ليومين بعد الحريق، أما هم فتواروا وأغلقوا عليهم أبوابهم.

– ليحترق كل شيءٍ!

هي آخر جملة قالها (عوض الصباغ) وهو ينسحب إلى داره آسفًا ومخزيا مصطحبًا زوجته وخادمتها، حقق (محمد) الأب نبوءته على الوجه الأمثل، كانت ألسنةُ اللهب تلسع بطون السحب، لم يقلل الدخانُ الثقيل من رائحة النصف، بل زاحمها لأيامٍ تالية جعلها ثقيلة مثله، وكأن البهائم قصدتْ توزيع نارها في كل الأرض فلم تفلت بقعةً.

حين عاد (محمد) الأب إلى داره كان ولده لم يزل منهارًا، المسافة بينه وبين (عصام) ابن (مصطفى الأخنف) بعيدةٌ، لكنه شعر بكفه تربت على كتفه مواسيةً، وهذا هو سرُّ العلاقة الوطيدة بينهما فيما بعد على ما أظن.

وقع بصر (محمد) الابن على والده، أدرك التغيرَ الظاهر في طبيعته، أدرك أيضًا أن عودته لما كان عليه مستحيلةٌ.

ظل الولد يراقب كف أبيه، لم يخش من قبل لطمة والده التي لا تؤذي، الآن يخشاها، بينما (أمينة) تحمل في جمجمتها صداعًا مريعًا لم يخففه البكاء.

***

–25–

لزم كل منهم داره إلى أن ابتلع الحريق أرضهم كاملةً، استسلموا للنار كما (ليلى) الصغيرة تمامًا.

«**فليحترق كل شيءٍ!**»... صحيح أن (عوض الصباغ) هو من قالها، لكنهم جميعًا قالوها معه وتقريبًا في نفس اللحظة بدون كلمات.

فقد الصباح معناه تمامًا حين حطَّ الدخان الأسود على دنياهم، أسبوعٍ تقريبًا من الليل المستمر، كان دخانًا ثقيلًا يشبه همهم مع ذلك لا شيء يستمر إلى الأبد.

(ضاحي الحفار) هو أول من فتح بابه ربما لعلاقته الوطيدة بالميتين، كان الهواء راكدًا مقرفًا، توارى خلف لثامه وخرج، حين وصل إلى منتصف الساحة وجدَ فأرينِ يقرضان لحم النصف في نهمٍ، فقدت الفئران مأواها باحتراقِ الأرض، تجرأت على العبور للجهةِ غير المعتادة، وجدت الأبوابَ كلها مغلقةً، انتشرت بحريةٍ حتى جاعت، كنسَت الأرض بحثًا عما تأكله، لعنت البراحَ وقرضت ذيولَ بعضها لكنها لم تشبع، سمعوها تصرخ ولم يفتحوا، إنها مجردُ فئران تافهة، خافت مجرد الاقتراب من النصف رغم سكونه الدائم حتى سقطت حبةُ قمح من منقار عصفور ضلَّ طريقه إلى سمائهم، يبدو أن بقايا الدخان ملأت ثقوب وجهه.

(لا أعرف كيف يمكن لفأر أن يلحظ مثل ذلك السقوط الدقيق؟ ولا أستغرب ذلك، فالنمل يفعلها بشكلٍ أكثر من عجيب).

الجوع المُهلك يقتل الخوفَ، اقترب وقرض، أعجبه استسلام الجسد، تبعه آخر، لكنهما فرّا حين ظهر (ضاحي الحفار)، نادى في الساحة: «**يا أهل النجع**»، خرجوا تباعًا بعد ترددٍ بالغ بوجوه محذوفة، حاوطوا النصف ولم يكن هناك فئران، لأنها جبانة بطبعها أو لأنها كانت لم تزلْ جبانة، وجدوا النصف قد اهترأ تمامًا ودب الدود فيه، تأملوا ما صار إليه: كومة من عفن.

– الفئران تأكله، وجدت فأرين يقرضان لحمه.

لم يرهما غيره وصدقوه، دخل (موسى البقال) داره وكان أقربهم للساحة منزلًا، أحضر حفنة حبوب، خليطًا من القمح والذرة في كفيه، نثرها فوق النصف.

– هذا سيجذبها، دعوا الفئران تتم مهمتها.

فعلها (موسى البقال) دونما مشورةٍ من أحد، وبدت فعلته مقنعةً إلى حدٍّ كبير.

أخرج كل واحد من الحاضرين حفنةً مماثلةً، نثرها في نفس المكان.

– عودوا إلى دياركم كي لا تخيفوها.

قالها (ضاحي الحفار) وانصرف أولًا.

في اليوم التالي لم يكن هناك نصف، بل كومة هائلة غير مميزة من الفئران، قنفذٌ في حجم بهيمة وليدة، فقد انتصب شعر الفئران بشكلٍ مخيف وهي تقرض، يختفي القنفذ كلما ظهر أحدهم لينثر حبوبًا جديدة، لم تعد الفئران بحاجةٍ للحبوب بعد أن تخلصت من خوفها،

ولم يتوقفوا عن نثرها.

بعد أيام معدودة انكشفت العظام واختفى اللحم تمامًا، (طولُ فترةِ النهش لا تعبِّر عن ضخامةِ النصف بل عن حداثةِ عهد الفئران بالنهش غالبًا)... ظلوا على حالهم ينثرون الحبوب، هذه المرة كي لا تجوع الفئران التي عرفت طعم اللحم، ثم بدأت الكلاب تمارس لعبتها، بات طبيعيًّا أن يجدوا كلبًا يلهو بعظمة إنسان في النجع، ورغم أن النصف ذهب ماديًّا إلا أن الرائحة لم تذهب معه أبدًا.

نقص الماء والغذاء أجبرهم على استعادة نشاطاتهم من جديد، ذبحوا بعض بهائمهم مستخدمين (سعد الجزار)، تكفلت الفئران بما يرمونه منها، والكلاب بعظامها.

لم يظهر الجوع على الكلاب أبدًا، عادت إليها طبيعتها الأليفة، استمرت رغم كل شيءٍ ولم يستغربوا، (ليلى) الصغيرة كانت خارج إطار المألوف وظلت هكذا بعد موتها، لم تأكلْ أو تشرب أمامهم أبدًا، ومن الطبيعي أن تكون كلابها مثلها.

حرثوا أرضهم من جديدٍ، وليس بينهم (محمد) الأب، بذروها من دونه، أثناء ذلك تعرفوا إلى بعضهم من جديدٍ، ستعود للأرض عافيتها، ستعود الفئران إلى جحورها، ولن يعودوا أبدًا كما كانوا.

اختفى النصف مخلفًا بقعةً سمراء وراءه، هالوا فوقها التراب مرةً، وكشفتها الريح من جديد، قالوا أنهم سمعوا الرياح تزمجر وهي تكنس البقعة، فانتهوا عن فعل ذلك.

***

–26–

للعبث مع الطبيعة ضريبةٌ قاسية، إنها تجري وفق نظامٍ دقيق ومحدَّدٍ، لذا فإن ما يطرأ من تغييرٍ على أحد مكوناتها يُحدث اضطرابًا هائلًا ولو كان المتغير على هيئة فأر.

وجدوا أن ما ينثرونه من حَبٍّ فوق البقعة السمراء يذبل سريعًا ويخف، ينفخه الهواء ويضيعه مع دخان الحريق، البعض قال: «**تأكله الأرض**»، والآخر قال: «**تقتله**»، العجيب أن الفئران لم تعد تقرب البقعة بعد اختفاء النصف، وبالتأكيد ليس خوفًا من الجنون.

نثروها اعترافًا بجميل الكائنات الصغيرة وفضلها في إنهاء معاناتهم، أما هي ففضلت بقايا ذبائحهم التي لاحظوا أن لحمَها بات يفسد أسرع من المعتاد، فكان المهدَرُ منها كبيرًا جدًّا، رأوها تنهش الجلد والسقط وما فسد من اللحم، بل وتشرب الدم أيضًا، كل الفئران ذيولها مبتورة، الأرض بحاجة إلى شهرين كحدٍّ أدنى حتى تطرح بذورًا جديدة لذا أكلت الفئران بنهمٍ وتوحش، ظنوا أن البقعة السمراء صارت محرمةً كما هي الأرض باتجاه مدافنهم، نثروا الحب على الحد المنزرع، وجدوها كما هي، مقلقٌ بالطبع أن تتغير الطبيعة الغذائية لعددٍ هائل من الكائنات الصغيرة لكنها أتفه من أن تثيرَ الذعر، ستعود حتمًا إلى ما كانت عليه، عندما تعود الأرض... كان هذا معتقدهم!

حين نفقت بهيمةٌ للحاج (عوض الصباغ) وجدوا الفئران قد نهشتها في مكان موتها، هذا ما قالته زوجته التي صدمها المشهد حد الصراخ،

بدت الفئران وكأنها تعرف تمامًا ما تريده، تخرج من مكامنها في صمتٍ، تنهي مهمَّتها على الوجه الأمثل وتعود دون أن يلحظها بشر، وربما كانت تسقط من السماء.

هي لا تترك وراءها أثرًا ملحوظًا، بدا الأمر بما يشبه التنظيف المجاني لولا قسوة المنظر، وكان مناسبًا لحالة الركود التي تسيطر على الجميع خروجهم من ديارهم فقط لأسبابٍ محددة، ولفترات قليلة جدًّا.

«لو أنها تستطيع تنظيف الهواء، لذبحنا لها قربانًا»... قالها (هاشم المجبراتي) حين أتت على بقايا ذبيحته وأخفتها في وقت قصير.

مرت الأيام هادئةً صامتةً كالفئران تمامًا ما بين إعادة بناء واستعادة حياة إلى اليوم الذي عاد فيه نحيب (ليلى) من جديد، خرجَ النحيب من دارها يشبه تمامًا ذلك الذي انتهت به ما منعهم النومَ، فتشوا في كل شبر من دارها، لم يجدوا غير الكلاب التي سكنتها ولم يهتموا، فمن ذا الذي يطمع في دار الصغيرة؟

الأموات لا يعودون للحياة، لكن (ليلى) لا تسري عليها مقاييسهم الحياتية، كلُّ ما يرتبط بها حي حتى جدران بيتها، بالطبع كان أكثرهم اهتياجًا (رضا الخشاب) والذي لم يُشفَ جرح رأسه رغم الوقت، وعكسَ طبيعة الجراح كان رأسه يزداد التهابًا يومًا بعد يوم، أخدودٌ من النار في جمجمته، خرج قابضًا على شعلته، ردته الكلاب مدافعةً عن مأواها أو رائحة (ليلى) بتوحشٍ، ولأنه يعرف غضبة الكلاب وجربها فر من أمامها مذعورًا، أغلقَ عليه بابه وأخذ يئن بصوت مسموعٍ.

(لا أعرف لمَ تراجع أمام الكلاب؟ فالألم كان أقوى من الخوف

والموت).

«أمي، أمي، أكلت، الفئران، أكلت الفئران كلبًا حيًّا أمام، أمام عينيَّ»... تذكرت (أمينة) نفس المشهد الذي لم يكن بعيدًا، ضمته إلى صدرها كي تهدأ أنفاسه وكأنها بدايةً جديدة، عندما عاد الأب إلى الدار أخبرته، في تلك المرة لم يبدأ جدالًا، صحبه إلى الحد القريب من الأرض المنزرعة، تأمل تلك النقطة التي التقت فيها الأرض مع إصبع ولده ليجد هيكل كلبٍ تم تفريغ لحمه تمامًا...

(لا أعرف حقيقةً ردة فعل الكلاب مع عظام واحد منها، لربما عرفته بأنوفها ثم وارته في التراب).

- إنها تشعر بكلابها حتى بعد الموت.

قالها (محمد) الأب وهو يقبض على كف ابنه ويحقق إرادته السابقة في الطيران والصراخ.

- الفئران أكلت كلبًا!

صرخ الابن مع والده، العجيب أنه كان سعيدًا، حين وصلا الساحة وجدا تجمهرًا أمام حانوت (سعد الجزار)، كان يلعن الحياة والنصف والفئران، لقد أكلت الفئران ذبيحته الأولى منذ بداية الأحداث، لم يكن قد تجاوز خسارتَه السابقة، اعتقد كالجميع أن الأمور قد استقرت، عندما توقف أهل النجعِ عن التفريط في ماشيتهم، وأغنامهم عاود نشاطه، ولم يعرف أنهم بهذا جوَّعوا الفئران.

- لقد عرفت سبب نحيب (ليلى)، الفئران هاجمت كلبًا وأكلته

حتى العظام.

ماتت (ليلى) وبقيت نبوءاتها، شعرت بالخطر وخافت على كلابها، ومعنى أن النحيب لم يتوقف أن كلابًا أخرى في طريقها للموت، وربما الكلاب جميعها.

للكابوس تبعاته، ويبدو أنها ستأتي شديدةَ القسوة وعمياء.

– هذا ما تبقى، أن نحمي للملعونة تلك كلابها من الفئران.

ظهر الغضب على وجه الحاج (عوض الصباغ) وهو يحدثهم، لم يكن قد استوعب كونه لم يعدْ كبيرهم، لا بدَّ من اجتماعٍ جديد، الأمر الذي بدا صعبًا وقتها، لقد عانوا بدرجةٍ جعلت مجرد النقاش صداعًا، وربما صراعًا.

إن غياب الكبير كرمز يقوض محاولاتِ الاتفاق قبل بدايتها، خاصةً فيما يتعلق بالأمور الغرائبية الخارجة عن حدود التفكير.

– فلتحترق الكلاب ولتحترق (ليلى)، أنا لن أشارك في أي شيءٍ.

قالها (موسى البقال) واعتزلهم كما فعل (محمد) الأب من قبل، بالفعل لم يتوقف النحيب بل تصاعدَ بشكلٍ مخيف، ظنوا أنه بالإمكان التعايش مع النحيب كما يفعلون مع الرائحة إلى أن تنفد كلاب (ليلى)، بالفعل بدأت الفئران تُنهي كلبًا في كل يوم.

حادثتان متتاليتان بدأتا حالة الذعر الحقيقي، الأولى عندما مات والد زوجة الحاج (عوض الصباغ)، كان طاعنًا في السن ولا يشكل موته أية مفاجأة، في اليوم التالي لدفنه صرخت ابنته عند قبره، صرخت كما

لم تفعلها من قبل، صراخٌ يشبه الموت الجديد تمامًا، تجمع أهل النجع عند المصدر ليجدوا الفئران قد حفرت نفقًا انسلَّت منه إلى القبر، ولستَ بحاجة لوصف المشهد عند فتحه، لم يجدوا سوى العظام التي واروها من كلاب (ليلى).

يومٌ وحيد هو كل ما مرَّ بين الحادثة الأولى والثانية، خرج (رضا الخشاب) وقد لوث القيحُ فكره، عزم على إلقاء نفسه من فوق الجرف منهيًا عذابَه المستمر، ولأن القرار صعبٌ جلس بالقرب من الحافة يتأمل الهوة السحيقة التي تنتظره، حتى وإن كان الأمر مقضيًّا فلا بد من شد وجذب بين إرادة الخلاص وإرادة البقاء، تردد جده من قبل ولم تكن هناك الفئران، كانت الشمس ملهبةً، جسده متهدمٌ، ولم ينم منذ فترة بعيدة.

أخبرَ (نجيب) ولد (رضا الخشاب) خاله بأن والده خرج منذ يومٍ كامل ولم يرجع إلى الدار.

خرجوا باحثين عنه رجالًا ونساءً من بينهم (نجية) زوجته التي استعادت شيئًا من وعيها، في الحقيقة شعرت برغبة في إنهاء البعد لأجل الأطفال كما يقلن دائمًا.

(لا أعرف تحديدًا لماذا اختص الموتُ طرقه الشنعاءَ هذه العائلة بالذات؟ لا يبدو لي أن الجلافة تستحقُّ ميتةً شنيعة كالانسحاق على الصخور أو النهش بالقوارض).

بعد ساعات طويلة من البحث الجاد عثروا على بقاياه عند الحافة، عرفوا أنه هو من بقايا ملابسه المتشربة بدمه، أما عظامه فكانت تشبه

عظام الجميع.

***

خفتَ صوت (ليلى) إلى أن تلاشى تمامًا، وأمنت الكلاب –أو ما تبقى منها– في دارها، ذلك بعد مشهد احتراق الفئران.

كانت (أمينة) تنثر الحب حول بيتها قبل المغيب، لم يتوقف ألم الرأس فاعتادته كما اعتادت غطاء رأسها، نثرت الحب بملامحَ باردة لكنها صافية، ربما كانت تحاول النسيانَ، ذلك البرود نلحظه دائمًا في محاولات التجاهل، تنفيذ الأوامر الصارمة، وهم يبرون بقسمهم إلى حدٍّ كبير.

اتفقوا على نثر الحب ليعود إلى ما ألفت من الفئران طبيعته، ولم ينسوا البقعة السمراء بالطبع.

اجتمع أهل النجع بعد حادث موت (رضا الخشاب) في الساحة.

(طيبة هي زوجته (نجية)، كل من سمع صوت نحيبها حزن لأيامٍ بعدها، حتى وهم يحرقون الفئران بدت عليهم أمارات الكآبة، حزن (محمد) الأب وارتسم الألم على ملامحه لأنه تذكر حوارهما الوحيد، كان جيدًا بدرجة تدعو للحزن).

بعد حوارٍ طويل كاد يفشل مراتٍ عديدة بدأ (ضاحي الحفار) يستخدم أبناءَه في العمل بهمةٍ، شاركهم البعض ولم يكن (محمد) الأب منهم، كانت الأرض صلدةً وقاسية، أرضهم لا تحب القبور، حفروها عنوةً كما فعل أجدادهم منذ القدم، استهلكوا يومًا وبعض يوم، هذا

زمنٌ كافٍ لخرق الأرض حتى الناحية الأخرى إن طاوعتهم، أو لصنعِ حفرة بحجم خوفهم وعمقه في أرض عنيدة، قد تسَعُ أربعةَ أفيال بالتقريب، فرشوها بالقش الجاف، وبطنوا جدرانها بصفوف من الحطب القديم، صبوا القليل من الكيروسين حتى لا تنفر منها الوحوش الضئيلة، تخيروا بقرتين ولم يدققوا، يمكن القول أنهما كانتا أقرب بقرتين إلى العيون لا أكثر، لاحظوا أن الفئرانَ تأكل منها أسرع، ذبحهما (سعد الجزار) على حدود الحفرة العميقة ليسهل الدفع بهما إلى عمقها.

ساعةٌ كانت كافيةً ليتشكَّل القنفذ مرةً أخرى، جذبتهم رائحة الدم من بعيد، وامتلأت الحفرة إلا قليلًا.

حين أشعلوا الحطب جرت النار أسرع من الفئران، بدت ألسنة اللهب غاضبةً حتى أنهم سمعوا لها صوتًا خشنًا مقبضًا، طقطقاتٌ أشبه بتكسير العظام، زاد ارتفاعها على المتوقَّع والمألوف، ظنوا أنها ستسقط الطيور لتصنع مأدبةً، لكن الطيور غابت منذ فترةٍ طويلة بسبب الرائحة، فقط العصفور الذي ضل طريقَه وأسقط حبةَ القمح، ثم لم يظهرْ من جديد.

سمع (محمد) الابن صوتَ صراخها، كان وحشيًّا إلى حدٍّ أفقده أي تعاطفٍ مع المخلوقات الصغيرة، لقد تغيرت طبيعةُ الفئران فاستحقت الحرق، كما أن (محمد) الابن تغير أيضًا منذ رأى حقيقة اكتشافه وبطولته.

(للأمانة لا يمكن الجزم بأن صورتهم في مشهد الحرق كانت شريرةً، انعكاس ظلِّ النار على الوجوه يشيطنها، يمكن لأي واحدٍ أن يتحول إلى شيطانٍ عند إشعاله للنار، هو الصراع الأبدي بينها والطين، ولا يمكننا

إنكار أنهم عبثوا بطبيعة الفئران ثم أحرقوها، هذا يحدثُ أحيانًا، نعتقد أننا نتعثر في كل هؤلاء الأشرارِ كاختبارٍ إلهيٍّ لطيبتنا بينما الأشرار نحن).

كلٌّ ما نزل إلى البئر احترقَ، بالتأكيد أفلتت نسبةٌ ضئيلة لكنها لن تمثل تهديدًا حقيقيًّا، الذعر يكمن في الأعداد، والعدد المتبقي لم يعدْ مخيفًا، هذا بالإضافة إلى أن جميعها كان مكتملَ الذيل.

كنوعٍ من الاحتياط بدأوا نثرَ الحبِّ حول ديارِهم قربَ كل مغيب.

(النهايات المعلومة تختصرُ المسافات بشكلٍ مدهش، تصبح قريبةً حتى وإن كانت بالغةَ البعد).

ربط أهل النجع بين مصائبِهم والنصف، وبدا أن شيئًا لم يتغيرْ بغيابه ما أفقدهم الثقةَ في نبوءاتهم، نهاياتٌ كثيرة ولا نهاية، هذا مرهِقٌ حد الاستسلام التام، جربوا الأيام من بعدها طويلًا فقط ليتأكدوا أنهم عادوا إلى الحياة، لم يصدقوا أن النهايةَ قد تمت، ارتابوا في أبسط الأشياء وأكثرها عاديةً، البذور حتى تنبت، الطير حتى يرحل، الحشرات حتى تهرب، والأحلام حتى تتحقق...

يُحكى أنهم ذاتَ مرةٍ حرثوا أرضهم قبل حصادها، بل وتوقفوا نهائيًّا عن زراعة الذرة لأنهم رأوا حلمًا واحدًا أن سربًا من الطير -وقد أصبح منظر أسراب الطيور في سمائهم من المشاهد النادرة- يحطُّ فوق الزرع، ولم يصعد إلى السماء ثانيةً، بدت الطيور مترنحةً لحظات ثم استسلمت للموت في هدوء، عندما استيقظوا بذلوا مجهودا هائلًا في جمع الطير الميت كله وحرقه كي لا تتوحش الفئران مرةً أخرى، نعم لقد تحققت رؤياهم بالفعل ووجدوا المئات منها، عمومًا هناك بدائلُ أسهل

وأقل طولًا من أعواد الذرة، بدائل لا تمنح خلوةً تغري بالقتل.

أيامٌ كان عليهم المرور بها ليتجاوزوا ما مضى، حين أقسموا في وسط الساحة على النسيان، وضعوا أيديهم على كتابِ الله، وصارت فترةً قضموها من تاريخهم ثم تفلوها، حذفوها بكامل وعيهم، وبكل تفاصيلها الأليمة.

***

-27-

«(محمد) يا أبي».

قالها (محمد) الأب لأبيه بعد أن أنجب ولده الأول وربما الأخير، أحبَ والده فلم يتردد في اختيار الاسم، تناوله الجد من يده: «**رائحته جميلة يا ولدي**».

لم تكنْ رائحة النجع قد تحسنت لكنهم اعتادوها، ستعتقدُ الأجيال القادمة أن رائحةَ العالم هكذا وسيتعودون، الوليد لم يتشربْها بعد، فظلت رائحته مختلفةً، وبالتأكيد جميلة.

مرت ثمانيةُ أعوامٍ كطرفة عين أو أقل، هذا ما فعله أهلُ النجع، تركوا الأيامَ تمر، لم ينسَ واحدٌ وكانوا قد أقسموا على النسيان، ألا يذكروا شيئًا مما حدث ولو مازحين، القسَم لا يقتصر على النصف وحده، بل وكل ما ترتبَ على ظهوره، حذفٌ للأيام التي مضت وكأنها لم تكن، هو خيارٌ مستحيل بالنسبة لغيرهم لكنهم يجيدون الصمت بالتحديد، ربما هو السرُّ في عدم قدرة الأحداث على تفتيتهم، أضف إليه انحسار العالم عنهم وتشابك أنسابهم.

مات (رضا الخشاب) كما تعلمون، أكلته الفئران من عند النهاية تقريبًا، واستردت (نجية) شيئًا من طبيعتها، كانت قد توقفت عن نحيبها بعد(ليلى) بشهر تقريبًا، تحررت وأبناؤها في الذهابِ إلى دار أخيها وقضاء فترات أطول، هناك نشأت قصةُ الحب بين (محمد) الابن، و(ثريا) ابنة عمته، تزوجها ابنةَ الرابعة عشرة، يبدو أن الفئرانَ عملت لصالحها

فلولا غيابُ أبيها ما نشأت العلاقة، عشقها الولد وأحبته (ثريا)، لم تحب غيره تقريبًا ولم تكره شيئا تمامًا كأمها، إنها طبيعة الأطياف الخفيفة.

أفلت (ضاحي الحفار) وأبناؤه من الجنون تلك المرة، بمعنى آخر تجاوزت الأرض عن عقابهم.

استعاد (مصطفى الأخنف) شيئًا من هدوءه ولا شيءَ من عقله، تنامت العلاقة بين (عصام) ولده و(محمد) الأب بصورة بالغة.

– **لن أكسر أنفك، سأحافظ على ذلك.**

قالها (محمد) الأب لصديقه حين شتمهُ بلفظٍ قبيح وكان يقصدها، بل دافع عنه أكثرَ من مرةٍ كي لا تنكسر، أما أهل النجع فقد انتهوا عن معايرة (مصطفى الأخنف) أو السخرية من تلاوته للقرآن كما فعلوا مع أبيه كإحدى لزوميات تنفيذ القسم بالنسيان، لفترةٍ طويلة أجاب الكبار على سؤال صغارهم بجملةٍ واحدة: «**إنه رجل طيب**»، وكان السؤال دائمًا: «**لماذا يفعل هذا؟**» لم يفُتهم بالطبع بعض المبالغات التي حولت قبره فيما بعد إلى مقامٍ، وأعادت إلى عائلته لقب (الشيخ).

أما (سعد الجزار) فترك الجزارة نهائيًّا واتجه لحرق بقايا بهائمهم الذبيحة، كره البهائم واللحم حتى يُقَال أنه حرَّمهُ على بيته طيلة حياته، كان أول من اكتشفَ طبيعة فساد اللحم الجديدة التي لم يفلحِ الثلج في علاجها، وصاروا يتشاركون بأعداد كبيرة في الذبيحة الواحدة، هذا يساعد في عدم إهدار اللحم.

أرسلَ الحاج (عوض الصباغ) أحد الرحالين بغية البحث عن أخيه دونما أملٍ، أنفقَ نصف ماله مقابلَ معلومة تدله، أعتقدُ أن الرحال

طمع في المال ولم يرجع أبدًا، لم يشفعْ له شيءٌ في استعادة (الكبارة)، تلك اللفظة التي باتت سيئة السمعة فتهرَّب الجميع منها رغم حنين آخرهم من وقت لآخرَ، عمومًا غابت الأحداث الطارئة التي قد تحتاج لاجتماعهم، استعادوا الرتابةَ والبطء، صاروا أثقل بكثير مما كانوا وأكثر تمسكًا بعزلتهم، حاوطوا النجع كله بشتلات أشجارٍ كالتي تحيط بالجرف، جيل أو اثنان وسيكتمل الجدار.

انفضَّ الجمع في دار الحاج إلا من (هاشم المجبراتي) الذي لازمه ربما تكفيرًا عن ذنبه الأخير أو اعترافًا بالجميل لأنه سامحَ لحظة الغلِّ منه، ثمانية أعوام قربت الكبار من الموت، وباقتراب الموت استعاد روحه المرحة وقدرته على إثارةِ ضحك الحاج (عوض الصباغ)، وأحيانا (سعد الجزار) الذي لم يبتعد كثيرًا حين يفضح لهما أسرارَ النساء المستورة تحت الملابس، ويبتدع أمنياته لا الحقيقة، كان للأمانة مهرجًا من النوع المقبول حتى في مبالغاته.

استعادت الأرضُ عافيتها واستعاد الزرع تمسكَه بجذوره -نستثني من أنواع الزروع نباتَ الذرة- وعادت للفئران طبيعتُها، لكنها فقدت رمزيَّتها عندهم ككائن صغير لا يؤذي، صارت رمزًا للفقر والعداء، وبدأوا يستعيذون بالله منها إذا حضرت، ويطعمونها الحبَّ خشية أن تتوحش مرةً ثانية.

استطاعت الكلاب الاستمرار وسكنت دار (ليلى)، بمعنى آخر صارت للكلاب دار أميز وأوسع من كل أهل النجع ولم يهتمْ أحد، ظلت (ليلى) حاضرةً بنحيبها وضحكاتها، عند كل موتٍ قريب تبدأ النحيب ولا تتوقف إلا عند الدفنِ، أي أن الموت صار معرَّفًا لديهم ولو قبل حدوثه

بساعات، يسمعون النحيب آتيًا من دارها فيبدأون نواحهم وتجهيزاتهم للوداع.

أما الضحكات التي كانت تصدرُ من دارها -على فتراتٍ متباعدة- فلم يستطيعوا تفسيرها، ربما هي دلالةٌ على سعادةٍ ما بعد الموت أو ما بعد الخلاص، لم يساور (محمد) الجد شكٌّ في أنها أرادت الموت أكثر من أي مخلوقٍ، ولربما رتبت هي كلَّ شيء، كتم ما يعتقده للنهاية فقد كانوا قساةً معها، قساة بدرجة تغفر لها كل ما يبدو أنها أفسدته.

تناوب أهل النجع على رش الحب في منتصف الساحة فوق البقعة السمراء تحديدًا، واستمروا في رشِّه حول البيوت وقت الغروب، كانوا يعرفون السببَ، ربما لن تعرفه الأجيال القادمة، شأنه شأن أفعال أخرى، كالخوف من الفئران والذرة، كنحيب (ليلى) ودارها، واعتزال الدنيا، كلعبة قياس طول الأعضاء عند الأطفال وألقابهم التي يحملونها، وكحرق بقايا الذبائح، سيخترعون لها حكايات، ولن يتوقفوا أبدًا.

كشف الابن عضو (محمد) الجديد: «**سيكون جيدًا بما يكفي**»، غمز لأبيه الذي ضحك من قلبه، كان الولد بلوريًّا لم يتعكر جلدُه حتى ظن (محمد) الجد أنه يرى روحه تجري في عروقه، روحًا جديدةً هشةً اسمها (محمد)، وكان يشبهه هو أكثر من أبيه.

صرخت (أمينة) في حجرتها فجأةً، أخبرتهم أنها كادت تقع حتى لا يفزعوا، فار رأسُها بقسوةٍ وسرعة كالعادة، ضغطت بكفيها على جانبي رأسها، كادت أسنانُها تنفري، كان ألمًا جديدًا لا يشبه سابقيه، تكومت في الأرض، انضغط جسدها في حجم نصفه ومخها ينتفخ، حين نزف أنفها دمًا غزيرًا قاتمًا بدأ كل شيءٍ يهدأ، شعرت برأسها يصغر، يصغر،

يصغرُ والألم يخفت تدريجيًّا.

- آآآآآه يا (ليلى).

قالتها وهي تستعد للخروج، قابلتهم برأسٍ مكشوفٍ، بعينين لامعتين وجزءٍ من ملامحها قد تبدل للأبد، تناولت الحفيدَ من حجر جده، قبلته بفطريةٍ حارة، ثم ناولته لأبيه: «**طبخت زوجتك لحمًا، كله قبل أن يفسد، هيا**»... بدت وكأنها تصرف ولدها إلى داره فالأمر ليس بمثل هذه السرعة أبدًا، لاحظ (محمد) الجد فعلتها، وكاد يعلق لولا أن سمعَ صوت (عصام) بن (مصطفى الأخنف) ينادي على صاحبه.

«**لا تكسر أنفه**»... داعبَ ولده وهو يتركه ينصرف، قرب الباب توقف الابن والتفت إلى والده قائلًا: «**آسف يا أبي، نويت الاعتذار منذ زمن، وأظن أن الوقت قد حان**».

ثم انصرف قبل أن يسأله أبوه عن تفسيرٍ لأسفه، وكان فضوله قد خبا قبل سنواتٍ تبلغ الثمانية، فلم يهتم بعدها بالاستفسار.

توقف (محمد) الجد عن ممارسةِ الزراعة منذ الأحداث المنسية، قام الابن على رعاية الأرض، قرب سن زواجه -السابعة عشر- أقام له أبوه دارًا شملت مكان الزريبة التي يكرهها، في أثناء الحفر وجدا صرةً من العملات الذهبية، بالتأكيد تعود إلى جده الأكبر، كان قد دفنها حين لم يجد للمال قيمةً، حتى وقتها لم تكن قيمة المال قد تنامت إلى الحد لولا وجود رحال بينهم يحول ذهبه على فتراتٍ متباعدة إلى بضاعة يستهلكها، لقد كفلت بالفعل حياةً كريمة بدون عمل لواحدٍ من أحفاده، وربما اثنين.

تغيرت طباع (محمد) الجد كثيرًا، تجاوز نظرته الخاصة لنفسه، شعوره القديم تجاه (ناعسة) وزوجها والخجل، صار أكثر جرأةً ووقاحة وأكثر فحولةً، خلا لهما المكان، جاورته (أمينة) لدرجة الاحتكاك، لم تكن قد فعلتها منذ ثمانية أعوام تقريبًا –رغم أنهما رُزِقا بابنة أخرى عمرها خمس سنوات– تولدت شرارةٌ تشبه الرغبةَ الجامحة.

(يبدو أن موقفَ السحل جاء في صالحه، عكس ما حدث مع (هاشم المجبراتي)، نشأ جدار بينه وبين (أمينة) وتهدَّم بفعل الزمن والنسيان، تفتت آخر حجرٍ في ذلك اليوم، أعتقد أنهما سيمارسان الجنس بعدها بكل حرية).

– ماذا جرى يا امرأة؟

سألها (محمد) الجد متعجبًا وهو يتأمل شعرها الهائش والجذاب.

– رجع رأسي إلى بدايته يا أبا (محمد).

قالتها بدلالٍ مثير كرغبة اليوم الأول في غياب الخجل.

تأمل ارتجافة شفتيها بنهم، استعاد تلك الصورةَ التي لمعت في وجهها يوم اكتشافِ النصف ثم انطفت سريعًا، ثمانية أعوام عادية تمامًا، كان عيبها في عاديتها أنها فقط تمر مفرغةً من الذكريات، حين استعادت ملامحها الملتهبة –ليس وجه (ناعسة) أبدًا– تذكَّر الجد فجأةً أنه ينتظر هذه الملامح بالذات منذ عمر، بدا المشهد مثل مجموعة هدايا سماوية دفعةً واحدة، البنتان في دار خالتهما، والابن في داره مع صاحبه، وملامحُ تذكِّرُ أنه يعشقها، غمزَ لها بطرف عينه، أراد (حجرة النوم)، مثَّلت التمنُّعَ فازدادت لينًا وإثارة، سألته:

– وماذا تريد؟

أشار إلى عضوه المنتبه تحت جلبابه، وكزته في كتفه برقة كالمعاتبة.

– تعرفين؟ ملامحكِ الآن تشبه تلك التي كانت في يوم...

قاطعته قائلةً:

– يوم وجدت النصف، لا أعرف! لكن ملامحك الآن...

أكمل (محمد) الجد بغير دهشةٍ:

– تشبه تلك التي كانت في نفس اليوم.

ابتسمت صافيةً:

– تغيرنا كثيرًا يا أبا (محمد).

فزَّ من مطرحه، وجذبها بقسوةٍ محببة في مثل هذه المواقف.

– لا شيء يبقى على حاله يا (أمينة).

كان كلبٌ يلهو بعظمةٍ من الماضي أمام الدار، عظمةٍ لم يحضر موت صاحبها على الأرجح، وربما هي آخر الأشياء المنسية.

لم يبق شيءٌ على حاله بالفعل، هذا قد يرهق الأجيالَ القادمة إذا ما بحثوا عن تفسيراتٍ منطقية، تغير كلَّ شيء.

ملحوظة...

«ربما لن تطرح أرض النجع أنصافًا بشريةً أخرى، إلا أنهم أدركوا طبيعتهم الهشة، تنامى خوفُهم من أي طارئٍ، وغريب، ورَّثوا الخوف قبل الأرض، ولهذا تشبثوا بعزلتهم، اشتهوها، وراحوا بكامل إرادتهم إلى حيث النسيان».

(تمت)

كما نثق بكتابنا نثق بصوتك / هنا نصغي إليك!

الهالة للنشر والتوزيع
AL HALA PUBLISHING & DISTRIBUTION

تواصل معنا، ونحن نسمعك!

https://www.facebook.com/alhalapublishing
info@alhalapublishing.com